

"الحياة في مصر" في القرآن الكريم

الدكتور / محسن عبد العظيم الشاذلي
مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة

✽ Her & ✽

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترضيه ونستغفره، ونعوذ بالله ﷻ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا؛ إنه من يده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد..

فلقد ذكر القرآن أماكن كثيرة، بعضها بالتكريم والمدح لها ولأهلها، وأخرى بالتوبيخ والذم... ومن هذه الأماكن بلدان كمكة، ويثرب، ومصر، ومنها مساجد كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الضرار..، ومنها جبال كجبل الطور والجودي... ولأنني مصري النشأة والهوى، رأيت أن أخصص هذا البحث عن مصر في القرآن، على أمل أن أستكمل الحديث فيما بعد عن باقي الأماكن.

وجعلت عنوانه (ملاحح الحياة في مصر في القرآن الكريم) - وهو وإن لم يكن باكورة إنتاجي العلمي، إلا أنني أعده كذلك، ولم لا وقد جمع بين خدمة الدين الإسلامي الحنيف، وخدمة وطني الغالي مصر، أضف إلى الزاد الثقافي الكبير الذي أظنني قد حصلت عليه نتيجة العمل فيه. أهداف من ورائه إلى:

- المساهمة في بناء هذا الوطن العظيم، بعد أن فعلت فيه سهام الغدر فعلها، بيد الأعداء حيناً، وبيد الكثير من أبنائه أحياناً.
 - رفع راية الإسلام الذي كرم مصر، فأكرمته، وحفظها فحفظته... كرمها وحفظها حين ذكرها في دستوره (القرآن) أكثر من غيرها، وردت هي الجميل بتحرير رجالها للمسجد الأقصى تحت راية صلاح الدين الأيوبي، وكسر شوكة التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي من شرقه حتى هُزموا فيها تحت راية قطز، فهما (أعني الإسلام ومصر) وجهان لعملة واحدة.
 - تحقيق معنى المواطنة، وقيمتها للناس كافة، فهي صنو الدين، ومن لا يحب بلده لا يحب دينه.
 - توضيح أهمية (مصر) الدينية والتاريخية.
 - تحبيب الناس عموماً - والمصريين خصوصاً - في مصر، بعد أن أساء إليها حفنة من الطغاة عبر الأعوام الأخيرة، إساءة حدثت بكثير من أبنائها إلى الهجرة إلى بلاد أخرى لضمان سلامة العيش وكرامته، وأثرت كثيراً على حبهام لها.
- أسأل الله ﷻ أن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم وأن يغفر لي ما وقعت فيه من خطأ أو نسيان. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

***** منهج البحث:**

وقد استعنت بالله ﷻ وشرعت في جمع هذا الموضوع من خلال آيات القرآن الكريم، معتمداً في ذلك المنهج الآتي:

- ١- جمع الآيات التي ذكرت مصر صراحة أو إشارة.
- ٢- توثيق نزول بعض الأنبياء، وكذا الصالحين -المذكورين في القرآن- مصر.

- ٣- تتبع الآيات التي تحكي مواقف لهم في أرض مصر.
- ٤- تتبع القصص المذكور في القرآن، في أرض مصر، مع غير الأنبياء.
- ٥- الربط بين ما حكاه القرآن وبين الواقع المعيش في مصر.
- ٦- اعتماد المنهج البحثي في العزو والتخريج والتوثيق.

***** خطة البحث:**

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة...

المقدمة: ذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع.

الفصل الأول: مصر في القرآن الكريم، جعلته في أربعة مباحث:

● **المبحث الأول:** من ذكرهم القرآن ممن نزلوا مصر أو كانوا من أهلها.

● **المبحث الثاني:** الآيات التي ذكرت فيها مصر صراحة أو إشارة.

● **المبحث الثالث:** الصفات التي أثبتتها القرآن لمصر

● **المبحث الرابع:** طبيعة الإنسان المصري كما قررها القرآن.

الفصل الثاني الحياة المصرية في القرآن الكريم، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الحياة الدينية. **المبحث الثاني:** الحياة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية. **المبحث الرابع:** الحياة السياسية...

سانلاً المولى ﷻ أن يجري الحق على قلبي ولساني وقلمي، وأن يغفر لي

ما يكون فيه من خطأ أو نسيان أو تقصير، وأن ينفع به قارنه، ويجعله في

ميزان حسنات والدي يوم القيامة... أمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب

العالمين

د/ محسن عبد العظيم الشاذلي

المقدمة

لماذا هذا الموضوع؟

١. حب الوطن فطرة في النفوس أقرها الإسلام، وتقرير ذلك شرعاً

فيما يلي:

• حب الوطن = حب الدين

وقد وردت الإشارة إلى ذلك مجملة في القرآن الكريم، قال ﷺ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣] فالرسل كلهم مع اختلاف أماكنهم وأزمانهم وأقوامهم، خيروا بين الدين وبين الوطن، وهذا يدل على مدى معنى المواطنة وحب الوطن في نفوسهم؛ ولذا فإن الكفار من أقوام الرسل هددوهم بإخراجهم من أرضهم إذا لم يكفوا عن الدعوة إلى الدين الجديد.

على أن القرآن الكريم قد فصل في آيات أخر ما أجمله في هذه الآية، فقال ﷺ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨] وقال ﷺ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقد أخرج أبو يعلى عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال: أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليّ، وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت. يا بني عبد مناف إن كنتم ولاية هذا الأمر من بعدي فلا تمنعوا طائفاً ببيت الله ساعة من ليل ولا نهار، ولولا أن تطغى قريش لأخبرتها ما لها عند الله، اللهم إنك أذقت أولهم وبالاً فأذق آخرهم نوالاً" (١)

(١) مسند أبي يعلى (٥ / ٦٩) قال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح خلا محمود بن خدّاش وهو ثقة.

وعن عائشة أنها قالت لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟، يا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله.

وكان بلال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته، يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً
بوادٍ وحولي إنخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنةً
وهل يبدون لي شامةً وطفيل

قالت عائشة فجنّت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وأنقل حماها فاجعلها بالجحفة (١)

قال العلامة الزرقاني في شرح هذا الحديث قال السهيلي وفي هذا الخبر وما ذكر من حنينهم إلى مكة ما جبلت عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه وقد جاء في حديث أصيل أي بالتصغير الغفاري ويقال فيه الهذلي أنه قدم من مكة فسألته عائشة كيف تركت مكة يا أصيل قال تركتها حين ابيضت أباطحها وأحجن ثمامها وأغدق إذخرها وابشر سلمها، فاغرروقت عيناه ﷺ وقال تشوقنا يا أصيل، وبروى أنه قال له دع القلوب تقر. (٢).

• الإخراج من الوطن = قتل النفس

وقد قرر القرآن ذلك في قوله ﷻ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾.

(١) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم - (٤ / ١٠٨)

(٢) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك - (٤ / ٢٨٨)

• الإخراج من الوطن عقوبة شرعية عند ارتكاب بعض الكبائر:

فالنفي عن الوطن عقوبة في حد الحرابة، قال ﷺ ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ نَقَطَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾.

والتغريب عاماً عقوبة في حد الزنا مع الزاني البكر، كما قال ﷺ ﴿ البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ﴾^(١).

• أعظم الناس أجراً هم المهاجرون

قال ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وقال ﷺ ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾

قال ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقال ﷺ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وقال ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

٢. اهتمام القرآن الكريم بمصر،

(١) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد الزنا حديث رقم ١٦٩٠.

حيث إنها أكثر البلاد ذكراً في القرآن. فقد ذكرها الله ﷻ في كتابه العزيز ثمانياً وثلاثين مرة، خمس منها بصريح اللفظ، وعشرون موضعاً دلت القرائن والتفاسير على أنها مصر، وثلاثة عشر موطناً تكرر فيها ذكر أماكن على أرض مصر. وسيأتي بيان تلك المواضع في حينه إن شاء الله. وأكتفي هنا بهذه الإشارة من سورة التين...

قال ﷻ ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) ﴾

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: "وقال بعض الأئمة: هذه محالٌ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ" (١).

فهذا الجمع القرآني بين الأماكن الثلاثة _ فلسطين، ومصر، ومكة - يؤكد الأهمية الإسلامية لمصر.

٣- اهتمام النبي ﷺ بمصر وأهلها

فمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة." (٢)،

(١) تفسير ابن كثير - (٨ / ٤٣٤)

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - (١٤ / ١٦٨) قال المحقق: ابن عبد الحكم في فتوح مصر، كر، وفيه لهيعة عن الأسود بن مالك الحميري عن بحر بن داود المعافري، ولم أر للأسود ترجمة إلا أن ابن حبان ذكر في الثقات أنه يروى عن بحر بن داود ووثق بحراً.

وعن أبي زر قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحما، أو قال: ذمة وصبها ﴾ (١)

قال الإمام النووي: " وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم " (٢).

وقد بوب الإمام مسلم في صحيحه بابا في فضائل مصر بعنوان (باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر) ذكر فيه: عن عبد الرحمن بن شماس المهرقي قال سمعت أبا زر يقول قال رسول الله ﷺ ﴿ إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فأخرج منها. قال فمر بريعة وعبد الرحمن ابني شريحيل بن حسنة يتنازعا في موضع لبنة فأخرج منها ﴾.

وعن أبي زر قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصبها فإذا رأيتم رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فأخرج منها قال فرأيت عبد الرحمن بن شريحيل بن حسنة وأخاه بريعة يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها ﴾.

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مديها ودينارها ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأت وعدتم من حيث بدأتم ﴾ شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه.

(١) صحيح مسلم - عبد الباقي - (٤ / ١٩٧٠)

(٢) شرح النووي على مسلم - (١٦ / ٩٧)

قال النووي معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين. (١)

وقد شرح العلامة القرطبي هذا الحديث تحت عنوان ومن باب: الأمور التي لا تقوم الساعة حتى تكون (٢)!!

وفي الحديث الأخير إشارة إلى تعافي الإسلام وقوته طالما كانت هذه البلاد في دائرته، فإذا خرجت عنه عاد غريباً كما كان.

وأخرج ابن حبان في صحيحه قال: حدثنا أبو هانئ حميد بن هانئ أنه: سمع أبا عبد الرحمن الحبلي و عمرو بن حريث يقولان: إن رسول الله ﷺ قال: (إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم فإنه قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله) يعني قبط مصر. (٣)

٤- دور مصر على مدار التاريخ في حماية المقدسات والذود عن

الإسلام

فإن تحرير بيت المقدس في موقعة حطين لم يتم للمسلمين تحت راية صلاح الدين الأيوبي رحمه الله إلا بعد أن ملك مصر واتخذ من أهلها جنداً، وما كسرت شوكة التتار -فضل الله- عن العالم الإسلامي إلا بوقوف أهل مصر ضدهم في عين جالوت، وما حديث حرب العاشر من رمضان عنا ببعيد.

كل هذه الأسباب تدفع الباحث دفعا إلى حب مصر أولاً، ثم إلى الكشف عن طبيعة الحياة فيها كما أخبر القرآن الكريم.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ٢٢٢)

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٣ / ٧٤).

(٣) صحيح ابن حبان - (١٥ / ٦٩) قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنه مرسل.

الفصل الأول مصر في القرآن الكريم

المبحث الأول

من ذكرهم القرآن ممن نزلوا مصر أو كانوا من أهلها

وحتى يكون الكلام في هذا المبحث جامعاً، فإننا نقسمه -أو نطرحه- في أربع نقاط...

أولاً: من نزل مصر من النبيين؟

تطالعنا -مجيبة عن هذا السؤال- آيات من القرآن الكريم، وأحاديث عن الرسول محمد ﷺ تفيد منها أن الذين نزلوا مصر، ممن ذكرهم القرآن الكريم، من النبيين هم:

١. سيدنا إبراهيم عليه السلام...

ويدل لذلك ما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ) قال: ﴿لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله ﷻ: قوله {إني سقيم} وقوله {بل فعله كبيرهم هذا} وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس.

فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت الله، فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت، فأطلق.

فدعا بعض حبيبته، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته (يعني سيدنا إبراهيم عليه السلام) وهو قائم يصلي، فأوماً بيده: مهيا (١)؟ قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء عليها السلام.

وقد ذكر العلامة العيني أن هذه القرية التي نزلها إبراهيم بزوجه سارة كانت مصر (٢).

وما ورد من قصص لهذا النبي الكريم، في القرآن، لم يقع منها شيء بمصر، ولكن هجرته عليه السلام - التي أشار إليها القرآن في قوله ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ - كانت إليها، ولعل هذه الهجرة هي التي يفسرها قول النبي ﷺ في الحديث السابق " وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة.. "

٢. سيدنا يعقوب عليه السلام وأولاده (الأسباط)...

وقد استقدمه يوسف إليها بعد أن استقر له أمرها، وأشار إلى ذلك القرآن الكريم، قال ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

٣. سيدنا يوسف عليه السلام...

(١) بفتح الميم وسكون الهاء وتخفيف الياء آخر الحروف مقصورا.. وفي رواية الأكثرين مهميم بالميم في آخره والكل بمعنى واحد وهو أنها كلمة يستفهم بها معناها ما حالك وما شأنك ويقال إن إبراهيم أول من قال هذه الكلمة. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٢٣ / ٢١٨)

(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٢٠ / ١٦٢)

وقد بدأ حياته فيها غلاماً صغيراً، وقص القرآن قصته في سورة سميت باسمه، بدأت بقول الله ﷻ ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى الآية المائة.

٤. سيدنا شعيب عليه السلام...

أخرج ابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني، قال: أجذب الشام، فكتب فرعون إلى أيوب: أن هلم إلينا، فإن لك عندنا سعة، فأقبل بخيله وماشيته وبنيه، فأقطعهم؛ فدخل شعيب على فرعون، فقال: يا فرعون، أما تخاف أن يغضب الله غضبة، فيغضب لغضبه أهل السماوات والأرض والجبال والبحار! فسكت أيوب، فلما خرجا من عنده أوحى الله تعالى إلى أيوب: أو سكتت عن فرعون لذهابك إلى أرضه! استعد للبلاء. (١)

٥. سيدنا أيوب عليه السلام...

أخرج ابن عساكر في تاريخه عن عقبة بن عامر مرفوعا، قال: قال الله لأيوب: أتدري لم ابتليتك؟ قال: لا يا رب، قال: لأنك دخلت على فرعون، فداهنت عنده بكلمتين" (٢).

٦. سيدنا موسى عليه السلام...

وقد ولد بها وألقت أمه -بوحى من الله إليها- في اليم، فالتقطه آل فرعون ونشأ في بيتهم.

وقد ذكر القرآن الكريم بداية هذه القصة في قوله ﷻ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالتَّطَّعَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقُنُّوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢)

(٢) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢)

إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [القصص ٧ - ١٣].

قال العلامة ابن كثير رحمه الله: "ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يُفني بني إسرائيل فيلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة. فقالوا لفرعون: إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم، وغلماهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقْمَنَ بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك.

فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يترون فيها الولدان، وولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يَدْرُنَ على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُهَا إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وزهين، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قَبَحَهُمُ اللهُ. فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفتن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبه حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً؛ قال عليه السلام ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفت في روعها، كما قال الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ... ﴾. وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها.

فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به

على دار فرعون، فالتقطه الجوازي فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتنن عليها في فتحه دونها. فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها؛ ولهذا قال ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا ﴾^(١)

٧. سيدنا هارون عليه السلام...

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ضمناً، في الحديث عن ولادة سيدنا موسى بمصر، وقد ورد التأكيد في القرآن على نزول هارون عليه السلام مصر وإقامته بها، وهو نبي، قال ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥] وقال ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنْتُمْ أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٨]، وقال ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا

(١) تفسير ابن كثير - (٦ / ٢٢١).

(٢) وقد يشكل على نسبة موسى عليه السلام إلى مصر بأنه من بني إسرائيل، وقد عرفوا منذ القدم باستقلالهم في العادات والطباع، وعليه؛ فإن ما يصدر منه عليه السلام علامة على طباع قومه الأصليين وهم اليهود. والجواب: أن المعول عليه في طباع الشخص هو البيئة التي تربي فيها، وهو عليه السلام وإن كان من بني إسرائيل نسباً، إلا أنه تربي في قصر فرعون مذ كان وليداً إلى أن بلغ أشده واستوى، فطباعه طباع من تربي في وسطهم لا طباع من ينتسب إليهم، كما أن بني إسرائيل كانوا في مصر في هذه الفترة، وكان لهم نوع اختلاط بأهلها، بدليل تلك الحادثة التي قُتل فيها القبطي على يد موسى عليه السلام، وهذا الاختلاط يورث شيئاً من تبادل العادات والطباع بين الفريقين. ومما يشهد لتأثر الناس ببعضهم بالمخالطة ما ورد في الصحيحين من قول كعب بن الأشرف اليهودي "إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب" يقصد نفسه !! فهل كان كريماً أصلاً؟ لا بل اكتسب الكرم من مجاورته العرب المسلمين. هذا ما جاء في شرح الحديث. والله تعالى أعلم.

إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأَتِيَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنَ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿ طه: ٤٢ - ٥٠]

٨. سيدنا الخضر عليه السلام...

وقد ورد التصريح بقصته مع موسى عليه السلام في سورة الكهف، ووصفه الله ﷻ بأنه (عبد) - ونحن نتوقف عند هذا الوصف فقط ولا نتعداه؛ وإن لم يصرح القرآن ولا السنة بنبوته عليه السلام، إلا أنها تفهم ضمنا من خلال النصوص (١) قال ﷻ ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]. وقد صرح النبي ﷺ بأن اسمه هو (الخضر)، فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري رضي الله عنه في صاحب موسى عليه السلام، قال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبي بن كعب، فدعا ابن عباس، فقال: إنني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيه، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه قال نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول بينما موسى في ملا من بني إسرائيل، جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله ﷻ إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه. وكان يتبع أثر الحوت في البحر. فقال -لموسى- فتاه "أرأيت إذ أوبنا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره" قال ذلك ما كنا

(١) اختلف العلماء في الخضر عليه السلام هل هو نبي أو ملك أو ولي، والجمهور على أنه نبي؛ لما ذكره الله تعالى في سورة الكهف من قصته مع موسى - عليهما السلام - فإن فيها أنه خرق سفينة كانت لمساكين يعملون في البحر وقتل غلاما لم يرتكب جريمة وأقام جدارا ليتيمين بلا أجر في قرية أبي أهلها إطعمهما، وأنكر موسى كل ذلك عليه، فبين له السبب أخيرا، ثم ختم القصة بأن كل ذلك كان منه بوحى من الله، وذلك فيما أخبر الله عنه من قوله: { وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }.. راجع: مجلة البحوث الإسلامية - (٤٢ / ١٢٤)

نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدنا خضرا، فكان من شأنهما الذي قص الله ﷻ في كتابه" (١). وهي قصة طويلة في سورة الكهف.

قال السيوطي: " ودخول الخضر -مصر- غير بعيد؛ فإنه كان في عسكر ذي القرنين، بل أحد الأقوال في الخضر أنه ابن فرعون لصلبه، حكاه الكندي وجماعة، آخرهم الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في معرفة الصحابة؛ فعلى هذا يكون مولده بمصر" (٢). والقول الأخير قد ينقضه قول الله ﷻ ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنَ لِي وَلَكَ ﴿ فَرِيْمَا يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ مِنْ امْرَأَتِهِ هَذِهِ عَلَى الْأَقْلِ، وَإِنْ كَانَ النَّصُّ لَا يَنْفِي أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِهَا.

٣- عيسى ﷺ....

قال السيوطي رحمه الله: " ورأيت في بعض الكتب أن عيسى ولد بمصر بقرية أهناس، وبها النخلة التي في قوله تعالى: ﴿ وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجُدْعِ النَّخْلَةِ ﴾، وأنه نشأ بمصر، ثم سار على سفح المقطم ماشيا، وهذا كله غريب لا صحة له، بل الآثار دلت على أنه ولد ببيت المقدس، ونشأ به، ثم دخل مصر " (٣).

ثانياً: من نزل مصر -من المؤمنين- غير النبيين:

١- شاهد براءة يوسف ﷺ....

الذي حكى القرآن قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿.

" وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال بعضهم: كان ابن عم زليخا، وكان رجلاً، ذا لحية، من خاصة الملك. وهذا

(١) صحيح البخاري- طوق النجاة - (١ / ٢٦)

(٢) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢) وانظر الإصابة في تمييز الصحابة (٢ / ٢٨٧) لابن حجر العسقلاني الطبعة الأولى، ١٤١٢ دار الجيل - بيروت تحقيق: علي محمد البجاوي

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢)

القول مروى عن ابن عباس وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم، والسدي، والحسن.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان صبيبا في المهدي. وكذا زوي عن أبي هريرة. وقد ورد فيه حديث مرفوع عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "تكلم أربعة وهم صغار"، فذكر فيهم شاهد يوسف. ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم." (١)

ولنا مع القول الثاني وقفة..

فالأثر الوارد فيه وإن كان مرفوعاً من هذا الطريق إلا أنه في إسناده ضعف؛ ففيه عطاء بن السائب وقد اختلط. (٢) والأصح فيه أنه موقوف على ابن عباس ﷺ، قال المرحوم أحمد محمد شاكر في تحقيق الأثر في تفسير الطبري: "حديث حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، حديث طويل، رواه أحمد في مسنده... وفي آخره: قال" قال ابن عباس: تكلم أربعة صغار، عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون"، ولم يرفع هذا القول الأخير إلى رسول الله ﷺ. وإسناده إسناده صحيح. (٣) كما أن هذا الأثر الموقوف ليس له حكم المرفوع؛ لوجود نص صحيح مرفوع يعارضه وهو ثابت في الصحيحين بما يفيد الحصر أنه ﷺ قال (لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة) (٤) ولم يذكر فيهم شاهد يوسف.

(١) تفسير ابن كثير - (٤ / ٣٨٣)

(٢) محقق تفسير ابن كثير (سامي بن محمد سلامة) - انظر: هامش "تفسير ابن كثير" - (٥ / ٢٩).

(٣) هامش "تفسير الطبري" (١٦ / ٥٥).

(٤) انظر: البخاري كتاب الأنبياء باب { واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها } حديث رقم ٣٢٥٣ ومسلم: كتاب البر والصلوة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها حديث رقم ٢٥٥٠.

إذن ليس هناك نص صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يدل على أن هذا الشاهد كان صبيياً في المهدي.

٢- صاحباً يوسف عليه السلام....

وكانا معه في السجن في مصر، أعدم أحدهما في جرم ارتكبه ودخل بسببه السجن، ونجا الآخر وكان سبياً في خروج يوسف عليه السلام من السجن، وقد حكى القرآن ما كان من أمرهما في سورة يوسف، قال ﷻ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ ﴾.

٣- ملك مصر أيام يوسف عليه السلام...

وقصته معروفة في القرآن في سورة يوسف، وأغلب الظن أنه آمن بيوسف عليه السلام، ومن القرائن على ذلك:

١- وصفه بالملك، وهو وصف يحمل التكريم لحاكم مصر، رغم التزام القرآن

وصف حاكم مصر بأنه (فرعون) وهو وصف فيه من التقبيح ما فيه.

٢- قوله ليوسف عليه السلام "إنك اليوم لدينا مكين أمين" وهو مدح لنبي، والغالب

في الكفار أنهم لا يمدحون نبياً، بل يعادونهم ويبعدونهم، كما حكى القرآن

الكريم ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

مَجْنُونٌ ﴾.

٣- استعماله ليوسف عليه السلام وزيراً، ولو كان على غير دينه ما استعمله.

كل هذه قرائن، وليست أدلة، على إيمان هذا الحاكم،

على أن الزمخشري رحمه الله قد قال في تفسير قوله ﷻ ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى

خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾: "فإن قلت: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد

كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟ قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم".

ونقل هذا القول أيضاً العلامة ابن عطية في تفسيره، فقال: " قال مجاهد: وأسلم

الملك آخر أمره".

٤- ذو القرنين عليه السلام...

قال السيوطي: " وقال ابن عبد الحكم: حدثني شيخ من أهل مصر، قال: كان ذو القرنين من أهل لوبية، كورة من كور مصر الغربية. قال ابن لهيعة: وأهلها روم.

وأخرج ابن عبد الحكم أيضا عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني من يسوق الحديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه، أن ذا القرنين رجل من أهل مصر اسمه مرزبا بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. وذكر صاحب مرآة الزمان: أن ذا القرنين مات بأرض بابل، وجعل في تابوت واطي بالصبر والكافور، وحمل إلى الإسكندرية، فخرجت أمه في نساء الإسكندرية حتى وقفت على تابوته، وأمرت به فدفن. وقيل: إنه عاش ألف سنة، وقيل: ألفا وستمئة سنة، وقيل: ثلاثة آلاف سنة^(١)

٥- مؤمن آل فرعون...

وله حديث طويل حكاه القرآن عنه في سورة غافر، بدءاً من الآية الثامنة والعشرين وهي قوله ﷻ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ حتى الآية الخامسة والأربعين وهي قوله ﷻ ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾

قال الحافظ ابن كثير " قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابن جرير، وَرَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعَل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم.

وقال ابن جرير عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: { يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ } [القصص: ٢٠]. وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى }، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، وأفضل

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢)

الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } (١).

٦- مؤمن القصص...

وقد وردت الإشارة إليه في قوله ﷺ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ قال ابن كثير: قال ﷺ (وَجَاءَ رَجُلٌ) وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ) أي: يتشاورون فيك (لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ) أي: من البلد (إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) " (٢).

٧- لقمان عليه السلام....

وعد بعضهم ممن دخلها من الأنبياء لقمان؛ وفي مرآة الزمان حكاية قول إنه من سودان مصر، وفي نبوته خلاف، والقول بأنه نبي قول عكرمة وليث. (٣)
أورد ابن كثير في تفسيره قال " وقال قتادة، عن عبد الله بن الزبير،: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفسس من النبوة.
وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. (٤).

ثالثاً: نساء دخلن مصر، أو أقمن بها، ذكهن القرآن...

وهن سبع:

الأولى: السيدة سارة زوج الخليل.

والثانية: آسية امرأة فرعون.

والثالثة: أم موسى.

والرابعة: أخت موسى.

(١) تفسير ابن كثير - (٧ / ١٤٠)

(٢) تفسير ابن كثير - (٦ / ٢٢٦)

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - (١ / ٥٢)

(٤) تفسير ابن كثير - (٦ / ٣٣٣)

والخامسة: زوج موسى

والسادسة: السيدة مريم.

والأخيرة: امرأة العزيز.

ودخول هؤلاء مصر لا يحتاج - بعد ما تقدم - إلى توثيق.

رابعاً: من ذكرهم القرآن من أهل مصر من غير المؤمنين؟

ويأتي على رأس هذه القائمة..

١. فرعون، لعنه الله...

قيل: إن اسمه الوليد بن مصعب بن الريان. وهو فرعون موسى عليه السلام. وفرعون لقب من كان يملك العمالة بمصر يومئذ، فيقال: إن فرعون موسى عليه السلام هو فرعون يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام. والصحيح أنه غيره، لأن فرعون يوسف هو الريان بن الوليد، وهو جد فرعون موسى والله أعلم. (١). وقد ورد ذكره في القرآن الكريم أربعاً وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة.

٢. هامان، لعنه الله..

وزير فرعون ومستشاره، وقد ورد ذكره في القرآن ست مرات في ثلاث سور، هي القصص، والعنكبوت، وغافر.

٣. عزيز مصر..

أيام يوسف، وقد قيل إن اسمه الريان بن الوليد، من أحفاد الوليد بن الريان ابن عاد بن إرم، الذي توجه إلى أرض مصر وكان ملكهم يومئذ مصر بن القبط بن حام الذي تبوأ أرض مصر، فسار إليه الوليد بن الريان حتى قتله، واستولى على ملكه. (٢)

٤. السامري...

وقد كان على دين موسى ﷺ، لكنه صنع العجل واتخذها إلهاً من دون الله ودعا بني إسرائيل لعبادته، وقد حكى القرآن قصته في سورة طه قال ﷺ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول - (١٢ / ٧٧٥)

(٢) الأخبار الطوال - أبو حنيفة الدينوري - (١ / ٤)

قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿

وقال ﷺ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلِهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾.

٥. قارون...

وقد حكى القرآن قصته في سورة القصص، قال ﷺ ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ ووردت الإشارة إليه في موطنين آخرين مقترناً بفرعون وهامان، قال ﷺ ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

فبلغ بذلك عدة من دخل مصر ممن ذكرهم القرآن أربعين نفساً، من النبيين والصالحين خمسٌ وثلاثون^(١) ومن غير المؤمنين خمسٌ فقط. ولكني، بعد ذلك كله، وتبعاً لطبيعة البحث، لا أعول على شيء من أخبار هؤلاء السابقين، مما ذكر في القرآن، إلا ما تأكد وقوعه على أرض مصر، أو كان صاحبها من أهلها، وهذا غالباً ينحصر في قصتين اثنتين في عهدين مختلفين، الأولى قصة يوسف عليه السلام، والثانية قصة موسى عليه السلام.

(١) وهذا تفصيلهم: الأسباط: أحد عشر، والنسوة: سبع، وصاحبها يوسف في السجن فهذه عشرون، إضافة إلى خمسة عشر آخرين، فجملة هؤلاء خمس وثلاثون.

المبحث الثاني الآيات التي ذكرت فيها مصر صراحة أو إشارة

تقدم أن القرآن الكريم أظهر اهتماماً بمصر، حيث ذكرها أكثر من غيرها، وبلغ عدد المواطن التي ذكرت فيها، ثمانية وثلاثين مواطناً، ما بين التصريح باسم مصر أو الإشارة إليها، أو إلى مكان فيها، وذلك على التفصيل التالي:

فأما صريح اللفظ، فقد ورد في خمس مواطن، وهي:

● قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ {يونس: ٨٧}.

● وقوله ﷺ في سورة يوسف ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَدَاً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ {يوسف: ٢١}.

● وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ {يوسف: ٩٩}.

● وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ {الزخرف: ٥١}.

● وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ

مَنْ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾ {البقرة: ٦١}

وأما ما دلت عليه القرائن، ففي عشرين موطناً، وهي:

● وقوله ﷺ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي

الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ {الأعراف: ١٢٣}

● وقوله ﷺ مخبراً عن فرعون ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى

وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى

ذكره: وقالت جماعة رجال من قوم فرعون لفرعون أتدع موسى وقومه

من بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض، يقول: كي يفسدوا خدمك

وعبيدك عليك في أرضك من مصر " (٢)

● وقوله ﷺ مخبراً عن نبيه موسى ﷺ ﴿ عسى ريكم أن يهلك عدوكم

ويستخلفكم في الأرض ﴾ {الأعراف: ١٢٩} أي: " يجعلكم تخلفونهم

في أرضهم بعد هلاكهم " (٣) ومعلوم أن فرعون وقومه كانوا بمصر.

● وقوله ﷺ ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها

التي باركنا فيها ﴾ {الأعراف: ١٣٧} يعني مصر؛ لأن بني إسرائيل لم

يكن يستضعفهم أيام فرعون غير فرعون وقومه، ولم يكن له سلطان إلا

بمصر.

● وقوله ﷺ ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعأ صدق ﴾ . {يونس: ٩٣}

(١) قد جعلت هذا الموطن آخر المواطن ذكراً رغم أنه في ترتيب المصحف سابق على غيره؛ لأنه مختلف فيه: هل المراد به مصر التي نعيش فيها، أو أي مصر من الأمصار، يدل للأول ما " وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: "اهبطوا مصر" من غير إجراء يعني من غير صرف. وروى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضاً. (انظر: تفسير ابن كثير - (١ / ٢٨١)) ويدل للثاني أن الكلمة وردت منونة، ومصر - التي نعيش فيها - ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث.

(٢) تفسير الطبري - (١٣ / ٣٦)

(٣) تفسير الطبري - (١٣ / ٤٥)

قال الطبري: "قيل: عني بذلك الشام وبيت المقدس.

وقيل: عني به الشام ومصر، وأخرج عن الضحاك: (مبوءاً صدق)، قال: منازل

صدق، مصر والشام." (١)

- وقوله ﷺ مخبراً عن يوسف ﷺ ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾
{يوسف: ٥٥}
- وقوله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾
{يوسف: ٥٦}
- وقوله ﷺ مخبراً عن ابن يعقوب ﷺ ﴿ فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ ﴾ {يوسف: ٨٠} يعني أرض مصر.
- وقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾
{يوسف: ٨٢}

قال الطبري: هي مصر (٢)

- وقوله ﷺ: ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَقِرَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾
[الإسراء: ١٠٣] أي أراد أن يخرجهم من أرض مصر.
- وقوله ﷺ ﴿ وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥١] قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم هي مصر.
- وقوله ﷺ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧، ٥٨] إشارة إلى أرض مصر
- وقوله ﷺ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾
[القصص: ٤]
- وقوله ﷺ ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ... ﴾ [القصص: ٥، ٦]

(١) تفسير الطبري - (١٥ / ١٩٨)

(٢) تفسير الطبري - (١٦ / ٢١٢)

- وقوله تعالى ﴿ إِن تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩] الأرض هنا مصر.
- وقوله ﷺ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ [القصص: ٢٠] المدينة هي مصر
- وقوله ﷺ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] يعني مصر
- وقوله ﷺ ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بِأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ [غافر: ٢٩]
- وقوله ﷺ ﴿ لَكُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأُورَثَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨] يعني قوم فرعون وأن بني إسرائيل أورثوا مصر.
- **وإليك الآيات التي ذكرت أماكن في مصر ، وهي ثلاثة عشر موطناً:**
- قال ﷺ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣]
- وقال ﷺ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة: ٩٣]
- وقال ﷺ ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٤]
- وقال ﷺ ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ نَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾
- وقال ﷺ ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . ﴾ [طه: ١٢]
- وقال ﷺ ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]
- وقال ﷺ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَبْنَاكُمْ مِنْ عَذُوبِكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [طه: ٨٠]

- وقال ﷺ ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾.
- وقال ﷺ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩]
- وقال ﷺ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص: ٤٦]
- وقال ﷺ ﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾
- وقال ﷺ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦].
- وقال ﷺ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) ﴾

وهذا كله عدا الضمائر العائدة على مصر وهي كثيرة أيضاً، ولا شك أن كثرة ذكر مكان ما في القرآن والإشارة إليه، فيه من التشريف له والاهتمام به ما فيه.

المبحث الثالث الصفات التي أثبتتها القرآن لمصر

الأمن:

قال ﷺ ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .. وقال ﷺ ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ وقد أثبت القرآن الكريم هذه الصفة لمكة في أكثر من مناسبة، كما أثبتتها لأماكن أخرى لكن لم يصرح باسمها، وإثبات هذا الوصف بصيغة الاسم يشير إلى ثبوته واستمراره.

البركة:

وقد وردت البركة في القرآن على معان كثيرة تخص مصر فوردت وصفاً للبقعة التي هي محلّ موسى، حيث ناداه ربّ العالمين: (في البقعة المباركة).

ووردت وصفاً في نار موسى ليلة طور سينين ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أى في طلب النار).

كما وردت في حق مصر كلها قال ﷺ ﴿ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴾.

"والبركة معناها ثبوت الخير الإلهي في الشيء. والمادة موضوعة للزوم والثبوت. وقوله ﷺ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ سمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة. والمبارك ما فيه ذلك الخير" (١)

الصدق

قال ﷺ ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ ﴾. والصدق قرين الإيمان "وهو الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتتحي عنها؛ لأنه لو تتحي عنها، فهذا يعني

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز - (١ / ٤٩٩)

التَّحِيَّ عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أَيْكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أَيْكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له: أَيْكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا. إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة في الكون. وحين يصدق التاجر في ثمن الأشياء؛ ويصدق العامل في إخلاصه للعمل؛ ويصدق الصحفي في نقل الخبر، ويصدق كل فرد في المجتمع، هنا يتكامل المجتمع وينسجم؛ لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب، والكذب هو الذي يخل بحركة الحياة. فوصف مصر بهذا الوصف يشير إلى وجود خير كثير فيها، وأنها لا تستغنى عنها أرض الإسلام كما لا يستغنى المؤمن عن الصدق^(١). والله أعلم.

القداسة:

وهي كلمة تجمع في معناها بين الطهر والبركة، فإذا قيل أرض مقدسة كان معناه أنها طاهرة مباركة.

وهذه الصفة وردت لمصر واضحة في قصة موسى عليه السلام، قال ﷺ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.

كما أنها واضحة في الجمع بينها وبين مكة وفلسطين، والقسم بها كلها في سورة التين، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

(١) تفسير الشعراوي.

المبحث الرابع (١) طبيعة الإنسان المصري كما قررها القرآن

بنتبع الآيات التي حكت مواقف لشخصيات مصرية، تظهر لنا بعض الصفات التي أثبتتها القرآن الكريم للشخصية المصرية، ولكني أجعلها ثلاثة أقسام...
 *** القسم الأول الصفات المثبتة للمصريين من صفات المؤمنين.
 *** القسم الثاني: الصفات المثبتة للمصريين من صفات الكافرين.
 *** القسم الثالث: الصفات المثبتة لهم من الصفات المشتركة بين الفريقين.
 أما عن صفات المؤمنين التي أثبتها القرآن لأهل مصر، فهي كالتالي:

أولاً: الشجاعة...

ونلمح -إثباتاً لهذه الصفة عند المصريين- الآيات القرآنية الآتية:

قوله ﷻ ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَلَمْ نَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١﴾.

"إن رسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر عدا رسالة محمد ﷺ فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة. وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض. وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمروا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهرًا طويلاً. والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمزاز من العفن والنتن والرجس والدنس. فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة؛ انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في قلوبهم. فلا هي قلوب خامئة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة؛ ولا هي باقية على عقيدتها القديمة. ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة. والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً" (١). ومن ثم كان لابد لمن يبعث إليهم من شجاعة فائقة حتى يستطيع مواجهة كل هذا المد من المشاكل والعقبات. وقوله ﷻ ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٧٣) ﴾

وقوله ﷻ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

(١) في ظلال القرآن - (٥ / ٤٢٤)

وفي هذه الآيات يقول ابن كثير رحمه الله: "قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى. واختاره ابن جرير، وَرَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم".

على أن مجموعات الآيات السابقة تحكي موقفاً بطولياً واحداً، تغير أبطاله (الطرف المؤمن) في كل مشهد، مع بقاء الطاغية (فرعون) الذي استكبر وطغى وبعى، وكانت مواجهته بقول الحق تحتاج إلى شجاعة، ندر وجودها، لا تتبع إلا من إيمان صادق قوي؛ ولعل هذا هو السبب في قلة عدد من آمن بموسى من الناس ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾، إن مواجهة الطغاة في كل مكان وزمان دون عدة مادية ودون أنصار، لهو أصدق دليل على الشجاعة، ولعل وجود الشجاعة في أهل مصر هي التي دعت النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصي أصحابه قائلاً: ﴿إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة." (١)

ثانياً: الشهامة والمرورة...

وأعني بها المفهوم الشائع وهو أن يسارع الإنسان لإعانة المحتاج ونصرة المظلوم سواء طُلب إليه ذلك أم لم يُطلب. وقد حكى القرآن مواقف شهامة ومرورة لشخصيات مصرية، من هذه المواقف:

- موقف موسى عليه السلام مع ابن عشييرته...

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - (١٤ / ١٦٨) قال المحقق: ابن عبد الحكم في فتوح مصر، كر، وفيه لهيعة عن الأسود بن مالك الحميري عن بحر ابن داخر المعافري، ولم أر للأسود ترجمة إلا أن ابن حبان ذكر في الثقات أنه يروى عن بحر بن داخر ووثق بحراً".

قال ﷺ ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾.

• موقف مؤمن القصص مع موسى ﷺ ..

قال ﷺ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾.

• موقف موسى ﷺ مع الفتاتين ..

قال ﷺ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

إن المواقف الثلاثة متتابعة في سورة واحدة، وفي مسافات زمنية متقاربة... فموسى ﷺ في الموقف الأول قد أغاث ابن قومه حين استصرخه واستنصره، فنصره على عدوه.

ولما علم فرعون بقضية القتل هذه التي نفوح منها رائحة الثورة والتمرد على الحاكم، شاور حاشيته فأشاروا بقتل موسى، فبعث إليه من يقتله وهنا تبدو شهامة الرجل في الموقف الثاني " فانتدبت يد القدرة واحداً من الملاء. الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة (غافر) انتدبته ليسعى إلى موسى { من أقصى المدينة } في جد واهتمام ومسارعة، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك: { إن الملاء يأترون بك ليقتلوك، فاخرج إنني لك من الناصحين } "

(١)

فيخرج موسى من مصر خائفاً على نفسه القتل، ويتوجه إلى مدين، وهناك.. وبعد أن انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين. ووصل إليه وهو مجهود مكثود. إذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة، السليمة الفطرة،

(١) في ظلال القرآن - (٥ / ٤١٧)

كنفس موسى ﷺ... وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء. والأولى عند ذوي المروءة والفتوة السليمة، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنمهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما.

ولم يقعد موسى الهارب المطارِد، المسافر المكدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف. بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب: { قال: ما خطبكما؟ }..

{ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير }..

فأطلعناه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورد. إنه الضعف، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال. وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال! وثارت نخوة موسى عليه السلام وفطرته السليمة. فتقدم لإقرار الأمر في نصابه. تقدم ليسقي للمرأتين أولاً، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة.

وهو غريب في أرض لا يعرفها، ولا سند له فيها ولا ظهير. وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد. وهو مطارِد، من خلفه أعداء لا يرحمون. ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس: { فسقى لهما }..

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله. كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل. ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه. فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب.

ثالثاً: الغيرة على أهله...

وهذا أمر واضح في استخدام القرآن لكلمة (الأهل) بديلاً عن (الزوج) و (امرأة) في الحديث عن أهل مصر خاصة...

ففي قصة موسى، عند عودته من مدين مع زوجته - وقد أثبتتها القرآن في أكثر من مناسبة- يقول ﷺ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِذْ قَالَ

مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١﴾

وقال ﷺ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢﴾

وفي قصة يوسف ﷺ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾

*** وهنا يبدو اعتراضان..

الأول: كيف توجّه موقف عزيز مصر من امرأته مع هذا الوصف الذي تريد إثباته ؟

والآخر: أنه قد ورد الوصف بالمرأة مع امرأة العزيز، وامرأة فرعون، وهما من أهل مصر، فلماذا لم يستخدم القرآن معهما كلمة الأهل كما استخدمها مع موسى ؟. والجواب عن الأول من وجوه:

الأول: أنه لم يكن مؤمناً أصلاً، وهذه الصفة خاصة بالمؤمنين.

الثاني: أن هذا موقف لا يحسب على البيئته ككل إنما يحسب على الشخص نفسه، فقد كان كبير وزراء مصر، وفضيحة كهذه قد تبعده عن كرسي الوزارة وتحط من مظهره العام أمام الناس "وهذا يبين لنا سياسة بعض أهل الجاه مع بيوتهم، وهو أمر نشاهده في عصرنا أيضاً؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبى أن يرى أهله في خطيئة، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغير أهله في مثل هذه القضية، ويحاول كتمان الأمر في نفسه؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف، ولا يريد أن يشمت به خصومه أو أعداؤه" (١).

(١) تفسير الشعراوي - (١ / ٤٣٩٦).

والثالث: أن العزيز هذا كان لا ينبغي وقد كان تبني يوسف وعامله كوله ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ وقد كانت عادة التبني معروفة منذ القدم، وكان الابن بالتبني له ما للابن الصلبي، فهل يقتل ولده لخطأ زوجته؟! والرابع: أنه لم يقع زنا أصلاً، إنما كان الأمر في نطاق المرادة التي لم تخرج عن نطاق القصر، فلعله أراد أن يبقى الأمر في حيز الكتمان حتى يقضي فيه أمراً يتناسب معه.

والجواب عن الثاني: أن في (الأهل) معنى التبعية، وهو معنى غير موجود في (امرأة فلان)، وأنت تعلم أن امرأة فرعون لم تكن تابعة له، أعني أنها لم تكن على دينه؛ لذلك لم يقل عنها القرآن إنها من أهله، وأما قول امرأت العزيز لزوجها: ((ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً)) فلأنها كانت تابعة لزوجها على دينه، وأميل إلى أنها لم تكن كذلك في نهاية عمرها، فهي القائلة ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾؛ ولذلك لم ينسبها القرآن إليه. والله أعلم.

رابعاً: قوة الإيمان...

وهذا يتجلى في أمرين...

الأول: موقف السحرة الذين ذهبوا أول النهار كافرين بموسى عليه السلام، محاربين له، فانقلبوا آخر النهار مؤمنين به، كافرين بفرعون لعنه الله، وكانت قوة إيمانهم مثار عجب لدى كل من يسمع بها، قال ﷻ ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَارَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى (٦٣) فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْفُوا بِإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي

نَفْسِهِ خَيْفَةً مُوسَى (٦٧) فُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى!

لقد وبخهم فرعون بأنهم لم يستأذنه قبل إعلانهم الإيمان بموسى ﷺ، وهددهم - إن لم يرجعوا- أن يعذبهم بشتى ألوان العذاب ثم يقتلهم شر قتلة "ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة (القلب) بمصدرها الهائل. فإذا هي قوية قويمة. وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة. وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة. وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل.

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القرى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون. فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه

{ قالوا: لن نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا.. } فهي علينا أعز وأعلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى. { فاقض ما أنت قاض } ودونك وما تملكه لنا في الأرض. { إنما تقضي هذه الحياة الدنيا }. فسلطانك مقيد بها، وما لك من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. { إنا آما برينا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر } مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصياناً؛ فلعل بإيماننا برينا يغفر لنا خطايانا { والله خير وأبقى } خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجزاء إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى..^(١)

^(١) في ظلال القرآن - (٥ / ١٢٩) بتصريف يسير.

الثاني: جَعَلَ الْقُرْآنَ كَرِيمًا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ..

قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(١)
يقول ابن كثير: " وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضربهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم،... قال: فتادة كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوائده ما ضر امرأته كُفْر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه.... وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها " (١).
وأخرج ابن جرير: عن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تُعَذَّبُ في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.
وأخرج أيضا عن القاسم بن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فنقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقالت: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

ومن صفات الكافرين التي أثبتها القرآن لأهل مصر..

أولاً: الإهتمام بالمظهر العام...

وأعني به، ما يُرَعَّبُ النَّاسَ فِي الشَّخْصِ، من المنظر الحسن، والفتوة، والأنصار،
والمال وذلك كله مع إغفال الجوهر...

ويستأنس هنا بما قاله فرعون لقومه عن نفسه وعن موسى ﷺ ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾.. إن المقارنة هنا ليست بين الشخصيتين بل بين ما تملكه كل شخصية من مقومات المظهر العام...

(١) تفسير ابن كثير ٨ / ١٧٢ باختصار.

ففرعون ملك، وموسى من الرعية.. وفرعون غني، وموسى فقير.... وفرعون متكلمٌ فصيحٌ، وموسى لا يكاد يبين... وهنا يعلن القرآن أن هذه الجولة قد حسمت لفرعون ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

ومما يستأنس به هنا أيضا أن فرعون وعد السحرة -إن هم غلبوا موسى- بالمناصب القريبة منه ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ !!!

كما لا ننسى في هذا المقام طلب موسى ﷺ من الله ﷻ أن يبعث معه أخاه هارون وزيرا: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾. وكل هذا يشير إلى اهتمام أهل مصر بالمظهر العام، وعنايتهم به.

وهل لنا -إن صح هذا الاستنتاج- أن نقول: إن هذا هو السر في أن يوسف ﷺ أعطي شطر الحسن، وكان الوزير الأول لأهل مصر !!؟

وهل كان هذا هو السر أيضا في أن موسى ﷺ كان يتمتع بالقوة الجسدية المفرطة، وأنه كان أعلم بني إسرائيل !!؟

شخصياً، لا أستبعد ذلك، فكل هذه الأمور (الجمال والمنصب، والقوة والعلم) مما يُحتاج إليه في تحسين المظهر العام.

ثانياً: الاستكبار والطغيان..

ولعل هذه الصفة كانت واضحة فيهم، لدرجة جعلت القرآن يُكَيِّمُ بها عنهم، قال ﷻ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ !!

وبدل على تمكنا فيهم أيضاً، أن مادة الاستكبار وردت في القرآن تسعاً وخمسين مرة، انصرفت في عشر منها إلى فرعون وأتباعه، كما أن مادة الاستعلاء وردت في القرآن خمس مرات، في أربعة منها لفرعون وأتباعه والخامسة لإبليس لعنه الله !!

واليك بعض الآيات في نسبة هذا الوصف إليهم..
 قال ﷺ ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾
 و قال ﷺ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ .
 و قال ﷺ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ .
 وقال ﷺ ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُنْكَبِرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .
 و قال ﷺ ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ومن الصفات المشتركة بين الفريقين:

أولاً: الذكاء..

ونلمح هذا الذكاء في مواقف متعددة لأشخاص كثير، منهم:

• شاهد يوسف ﷺ في قوله في قضية المراودة،

حين افترت امرأة العزيز على يوسف ﷺ المراودة، ودافع يوسف عن نفسه، ووقع العزيز في حيرة.. يصدق من ؟

هنا جاء قول هذا الشاهد المصري الذي يدل على حنكته ولياقته وذكاءه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ " وقد سمي قوله هذا شهادة، لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروف من الجانبين، ولكل منها ومن يوسف قول، سميت فتواه هذه شهادة، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه.. فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب. وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هي له حتى الباب، فهي كاذبة وهو صادق.. وقدّم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه، فهي السيدة

وهو فتى، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة. " (١)

• عمل امرأة العزيز مع النسوة،

وهو عمل - عند تخيل أحداثه- يشي بنكاء (أو إن شئت، سمّه كيداً) كبير من المرأة، إذ أعدت للنسوة متكئاً " قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المُعَدُّ، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه. ولهذا قال تعالى: { وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا } وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، { وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَ } وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، { فَلَمَّا } خرج و { رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتَهُ } أي: أعظم شأنه، وأجلل قدره؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهْشًا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد: أنهن حزنن أيديهن بها. (٢).

• أم موسى حين خافت على وليدها...

قال ﷺ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

يقول الحافظ ابن كثير واصفاً طريقتها في إخفاء وليدها "وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها " (٣) فإذا خرج من تخافه على وليدها جرت التابوت بالحبل.

• أخت موسى..

حين احتالت لرؤية أخيها دون أن يشعر بها أحد من قصر فرعون ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بل نجحت في أن تعيده، بأيديهم وتحت حمايتهم، إلى أمه كي ترضعه، إذ استغلت فرصة رفض الرضيع لكل المرضعات ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ ...

(١) في ظلال القرآن - (٤ / ٣٠٢)

(٢) تفسير ابن كثير - (٤ / ٢٨٥)

(٣) تفسير ابن كثير - (٦ / ٢٢٢)

أورد الطبري عن ابن إسحاق، قال: "قالت، يعني أم موسى لأخته: قصيه فانظري ماذا يفعلون به، فخرجت في ذلك (فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وقد احتاج إلى الرضاع والتمس الثدي، وجمعوا له المراضع حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بامرأة، فيقبل ثديها، فيرضعهم ذلك، فيؤتى بمرضع بعد مرضع، فلا يقبل شيئاً منهم، فقالت لهم أخته حين رأت من وجدهم به وحرصهم عليه (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) أي لمنزلته عندكم وحرصكم على مسرة الملك " (١).

ثانياً: العلم...

وأعني بهذه الصفة أمرين.. الأول: قوة العلم النظري وسعته، والآخر: المهارة في استخدام العلم وتطبيقه،

وهذان الأمران قلما يجتمعان في شخص أو في أمة من الأمم، وقد أشارت آيات القرآن إلى وجود الأمرين معاً في أهل مصر، ونلمح هذه الإشارات فيما يلي:

- قوله ﷺ على لسان يوسف **﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾**

وقد نجح يوسف **﴿ عَلَيْهِ السَّلَام ﴾** باقتدار في تطبيق ما لديه من علم نظري ومهارة في الاقتصاد، فاجتاز -بفضل الله- أزمة غداء طاحنة ألمت بمصر والعالم، وقاد مسيرة الاقتصاد العالمي على مدار خمسة عشر عاماً، تلك التي ذكرها القرآن الكريم في سورة يوسف **﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)** ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿

- قوله ﷺ على لسان قارون **﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾**.

(١) تفسير الطبري (٣٠٥/١٨)

قال سعيد بن المسيب: كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله" (١)

يقول الحافظ ابن كثير في هذه الآية: "وقد روي عن بعضهم أنه أراد: { إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي } أي: إنه كان يعاني علم الكيمياء: وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ" (٢)

والواضح أن استبعاد العلامة ابن كثير رحمه الله لهذا القول ليس لضعف الأثر حديثاً، وإنما لبعده عقلاً، وأحسب أنه رحمه الله لو كان في زماننا ما استبعده!! وقد استخدم قارون هذا العلم ونجح في تطبيقه، وجمع من ورائه أموالاً طائلة، ورد وصفها في القرآن الكريم، قال ﷻ ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ... ﴾ .

ثالثاً: الصبر..

وهذا واضح على مستوى الفرد وعلى مستوى الشعب....

أما الفرد فصبر موسى ﷺ على رعي الغنم -مهرراً لزوجته- عشر سنوات. وأما الشعب، فصبر الشعب مع يوسف ﷻ في الأزمة الغذائية التي ألمت بمصر لمدة سبع سنوات، وصبره على حكامه الفراعين سنوات حكمهم!!! قال ﷻ ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نُنكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أُنْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

(١) تفسير البغوي - (٦ / ٢٢٢)

(٢) تفسير ابن كثير - (٦ / ٢٥٤) وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي - (١ / ١٣٨٨)

رابعاً: -ومن الصفات الجماعية- الميل مع من غلب..

وهذا ظاهر من قوله ﷺ ﴿لَعَلْنَا نَنْبَغُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

فقد خرج المصريون لمشاهدة المناظرة بين موسى والسحرة، ولأنهم يعلمون قوة علم السحرة ومهارتهم وأنهم مدعومون من فرعون، ويعلمون كذلك أن موسى قد يرغب أنوف هؤلاء إذا غلبهم فيستريحوا هم بذلك من حكم فرعون وتسلطه.. لذلك لم يتخذوا القرار الحاسم مسبقاً إنما علقوه (إن كانوا هم الغالبين) ولست أدري إن كانت الشواهد السياسية الحالية وخاصة الانتخابية في مصر مما يؤيد ذلك أم لا.

هذه هي بعض الأوصاف التي أثبتتها القرآن للشخصية المصرية، وأعيد التنكير بأني لا أدعي أن كل المصريين توفرت فيهم هذه الصفات، كما لا أدعي أن هذه الصفات غير موجودة في غير المصريين فهذا كلام غير مقبول قطعاً، لكن الغرض بيان مدى اهتمام القرآن بالشخصية المصرية، كما اهتم بالأرض نفسها، أعني أرض مصر...

فكان القرآن يشير -بإثبات هذه الصفات الكريمة للمصريين- إلى أن مصر أرض طيبة وطناً وشعباً. والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني: الحياة في مصر المبحث الأول: الحياة الدينية

تمثل العقيدة عند الأفراد والجماعات الروح التي تسري في جسد الإنسان فيحيا بها، ويحرص على بقائها، لأنها هي التي يحيا لها، ويقاوم من أجلها... إن عقيدتي هي أئمن شيء أحرص عليه، فهي السبيل الذي اخترته لنفسي ليوصلني إلى سعادتي، عليها أحيا وفي سبيلها أبذل الغالي والرخيص، فإذا لم أكن كذلك فلا داعي لأن أصف نفسي بأنني صاحب عقيدة..

"قالفرد بغير عقيدة ولا إيمان ريشة في مهبّ الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، أينما نُملها الريح نَمِل، وهو بغير عقيدة ولا إيمان إنسان لا قيمة له ولا جذور !!

إنسان قلق، متبرّم، حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

وهو بغير عقيدة ولا إيمان: حيوان شرّ، وسبع فاتك مفترس، لا تستطيع الثقافة ولا القانون أن يحدا من شرايته أو يقلما أظفاره !!

والمجتمع بلا عقيدة ولا إيمان مجتمع غابة وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل ولا للأتقى.

والمجتمع بلا عقيدة ولا إيمان مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية من الرخاء.

مجتمع تافه مهين رخيص؛ لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج، فهم: { يَنْمَتُّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } (١)

ويبدو أن المصريين قديماً كانوا يؤمنون بأمور من أمور الغيب، وكانوا يقدرونها، مما يجعلنا نقول إنهم كانوا أقرب إلى التوحيد من غيرهم، وقد أظهر القرآن الكريم ذلك الأمر، وذلك فيما يلي:

(١) من مقدمة كتاب (الإيمان والحياة) للعلامة الدكتور يوسف القرضاوي.

• **قول النسوة حين خرج عليهن يوسف عليه السلام ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ ..**

وهذا القول يدل على إيمانهم بوجود خلق آخر غير البشر يسمى ملكاً، وهو مفرد الملائكة، وهم يلحقون بهذا الملك أوصاف كمال، لذلك وصفوا به يوسف عليه السلام لما رأوا من جماله وعدم التفاته إليهن، وكان من جملة ما طلبه فرعون قبحة الله حتى يرى وجهاً لاتباع موسى عليه السلام ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه.

• **قول عزيز مصر لامراته ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾**

وهو يدل على أنهم كانوا يعتقدون بمبدأ الثواب والعقاب، فمن فعل خيراً كوفئ عليه، ومن فعل شراً عوقب به.

• **قول امرأة العزيز ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ...﴾**

يشير هذا القول منها إلى إيمانها برب له قداسة، يبارك العمل الصالح ويقبله، ويعين الإنسان على نفسه لئلا ترتكب فحشاً أو تقترف إثماً.

• **قول الله تعالى ﴿حِكَايَةَ عَن فِرْعَوْنَ مَوْسَىٰ﴾ ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أُسُورَةً مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾**

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: "أفكان لرجل فارغ الذهن من وجود الله تعالى والملائكة أن يقول هذا القول، وفي موضع آخر يقص القرآن الحوار الآتي بين فرعون وبين موسى عليه السلام ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مَوْسَىٰ مَسْحُورًا. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنَ مَثْبُورًا﴾

وفي محل آخر يظهر الله تعالى ما في صدور قوم فرعون بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مَبْصُورَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجحدوا واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ (١) غير أنه كان لهذه الحياة الدينية عند المصريين معالم، ذكر القرآن بعضها منها، تجعلنا نميل إلى أن عقيدتهم لم تكن خالصة تماماً، ولذلك أرسل الله إليهم الرسل، ومن هذه المعالم...

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن (١/ ٤٢)

أولاً: التفاؤل والتطير.

وهما معنيان متضادان " وأصلُ الفألِ الكلمةُ الحسنَةُ يَسْمَعُهَا عَلِيلٌ فَيَتَأَوَّلُ مِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى بُرئِهِ كَأَن سَمِعَ مَنَادِيًّا نَادِي رَجُلًا اسْمُهُ سَالِمٌ وَهُوَ عَلِيلٌ فَأَوْهَمَهُ سَلَامَتَهُ مِنْ عِلَّتِهِ وَكَذَلِكَ الْمُضِلُّ يَسْمَعُ رَجُلًا يَقُولُ يَا وَاجِدٌ فَيَجِدُ ضَالَّتَهُ وَالطَّيْرَةُ مُضَادَّةٌ لِلْفَأْلِ وَكَانَتِ الْعَرَبُ مَذْهَبُهَا فِي الْفَأْلِ وَالطَّيْرَةِ وَاحِدًا فَأَثَبَتِ النَّبِيُّ ﷺ الْفَأْلَ وَاسْتَحْسَنَتَهُ وَأَبْطَلَتِ الطَّيْرَةَ وَنَهَى عَنْهَا" (١) " وأصلُ التطيرِ أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمينا تيمنا به واستمر وأن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها، وكان التشاؤم في العجم إذا رأى الصبي ذاهبا إلى المعلم تشاءم أو راجعا تيمنا وكذا إذا رأى الجمل موقرا حملا تشاءم فإن رآه واضعا حملة تيمنا ونحو ذلك فجاء الشرع بالنهي عن ذلك... وقال من تكهن أورده عن سفر تطير فليس منا ونحو ذلك من الأحاديث وذلك إذا اعتقد أن الذي يشاهده من حال الطير موجبا ما ظنه ولم يضيف التدبير إلى الله تعالى فأما إن علم أن الله هو المدبر ولكنه أشفق من الشر لأن التجارب قضت بأن صوتا من أصواتها معلوما أو حالا من أحوالها معلومة يردفها مكروه فإن وطن نفسه على ذلك أساء وإن سأل الله الخير واستعاذ به من الشر ومضى متوكلا لم يضره ما وجد في نفسه من ذلك وإلا فيؤاخذ به وربما وقع به ذلك المكروه بعينه الذي اعتقده عقوبة له كما كان يقع كثيرا لأهل الجاهلية والله أعلم" (٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ وَالْفَأْلُ الصَّالِحُ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ).

قال الحافظ في الفتح: " قال الحلبي وإنما كان ﷺ يعجبه الفال لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق والتفاؤل حسن ظن به والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال وقال الطيبي معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئا فظنه حسنا محرزا على طلب حاجته فليفعل

(١) لسان العرب - (٤ / ٥٠٨)

(٢) فتح الباري - ابن حجر - (١٠ / ٢١٢، ٢١٥).

ذلك وأن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم والله أعلم " (١)

وقد كان هذا الأمر -ولا يزال- شائعاً عند كثير من المصريين، وقد أثبتته القرآن في حق عقيدتهم، وذلك في قوله ﷺ ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

"وقوله الحق: { فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ } أي جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون: « لنا هذه » أي أننا نستحقها؛ فواحد يقول: أنا أستحقها لأنني رتب لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون: { إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي }

وأجرى عليه الحق التجربة، فمادام يدعي أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذي عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته. وهم قالوا عن الحسنات التي يهبها الله لهم: « قالوا لنا هذه » أي نستحقها، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج. وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار.

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيِّرون أي يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم، وضده التفاؤل، ويقال: « فلان طائرته نحس »، و « فلان طائرته يمن وسعد ».... والحق هنا يوضح: لا تظلموا موسى، لأن شؤمكم أو حظكم السيئ ليس من موسى؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً، وإنما المالك للكون هو رب موسى. وكأن الحق يريد لهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير، وهنا يقول لهم لا تنتظروا بموسى، لأن طائرکم من عند الله.

ولأن أحداث الحياة صنفان: حدث لك فيه مدخل، مثل التلميذ الذي لم يذكر ويرسب، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة، وهنا لا غريم لهذا الإنسان، بل هو غريم نفسه.

(١) فتح الباري - ابن حجر - (١٠ / ٢١٥).

وهناك شيء يقع عليك، واسمه حدث قهري، فالإنسان فى الأحداث بين أمرين اثنين: إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره فى شيء. وإما أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان؛ لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء، وإلى عاجل الأمر فيها، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر. ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل. إذاً فالمقادير التى تجري على الناس بدون دخل لهم فيها، فله فيها حكمة، وهنا يقال: { طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ }، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجري له فيقال: طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك " (١).

ثانياً: اعتقادهم فى الرؤى والأحلام...

وبدا هذا الأمر واضحاً فى المعجزة الخاصة بسيدنا يوسف عليه السلام، وهى علم تأويل الأحاديث !!! فإن تكون المعجزة لنبي أهل مصر هى تأويل الأحلام فهذا يدل على مدى اهتمام هؤلاء الناس بالأحلام واعتقادهم فيها. وفى سورة يوسف يبدو هذا الأمر واضحاً، حيث ذكرت السورة ثلاث رؤى لثلاث شخصيات تمثل مختلف طوائف المجتمع... (رؤيا يوسف، رؤيا صاحبيه فى السجن، رؤيا الملك) ففيهم الكبير والصغير، والغنى والفقير، المؤمن وغير المؤمن، الحاكم والمحكوم، مما يدل على تغلغل هذا الأمر فيهم.

*** موقف الإسلام من الرؤى:

مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا "أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً على أمور آخر يخلقها فى ثاني الحال أو كان قد خلقها فإذا خلق فى قلب النائم الطيران وليس بطائر فأكثر ما فيه أنه اعتقد أمراً على خلاف ما هو فيكون ذلك الاعتقاد علماً على غيره كما يكون خلق الله تعالى الغيم علماً على المطر والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التى جعلها علماً على ما يسر بغير حضرة الشيطان ويخلق ما هو

(١) تفسير الشعراوي - (١ / ٣٠٢٠)

علم على ما يضر بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازاً لحضوره عندها وإن كان لا فعل له حقيقة وهذا معنى قوله ﷺ ﴿الرؤيا من الله والحلم من الشيطان﴾ لا على أن الشيطان يفعل شيئاً فالرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه.

وإضافة الرؤيا المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف المكروهة، وإن كانتا جميعاً من خلق الله تعالى وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيهما، لكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ويسر بها، قال ^٨ ﴿فإذا حلم أحدكم حلماً يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره﴾ (١)

ولا اعتبار بهذه الرؤى - في حق غير الأنبياء - في تنفيذ أمور به أو ترك منهي عنه، وغاية ما فيها أنها رسائل ترغيب في فعل الشيء أو تنفير منه، ولا يصح أن نبني عليها حكماً.

وقد لخص الشهيد حسن البنا عليه رحمة الله موقف الإسلام من الرؤى والأحلام فقال: "وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه". (٢).

وقد كان أهل مصر قديماً، ولا تزال فيهم بقية من هذا القديم، يتأثرون بالرؤى ويهتمون بتأويلها، حتى كان ذلك سبباً في التفافهم حول يوسف عليه السلام؛ لأنه أعلم الناس بتأويل الأحلام.

وفي سورة يوسف يبدو هذا الأمر واضحاً، حيث ذكرت السورة ثلاث رؤى لثلاث شخصيات تمثل مختلف طوائف المجتمع...

أولاً: رؤيا يوسف عليه السلام...

قال عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا

(١) شرح النووي على مسلم - (١٥ / ١٧)

(٢) رسائل الإمام حسن البنا - (١ / ٣٧٠)

إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴿. وقد ورد تأويلها في نهاية القصة ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ
سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

ثانياً: رؤيا صاحبيه في السجن...

قال ﷺ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾. ويؤلفها يوسف ﷺ لهما كما حكي القرآن ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا
أَحْذَرُكَ فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

ثالثاً: رؤيا الملك...

قال ﷺ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا
تَعْبُرُونَ ﴾

فيؤلفها أيضاً يوسف ﷺ ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي
سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ
لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يَعْصِرُونَ ﴾.

*** واللافت في هذه الرؤى:

أولاً: أنها صدرت من كل فئات المجتمع تقريباً... ففيهم الكبير والصغير، والغني
والفقير، المؤمن وغير المؤمن، الحاكم والمحكوم، مما يدل على تغلغل هذا الأمر
فيهم.

ثانياً: عظيم اهتمامهم بها، وتقديرهم لها...

*** فيعقوب ﷺ يوصي ابنه - وقد استعظم رؤيته- ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ
رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

** ويبدو أن صاحبي يوسف في السجن قد كثر كلامهما فيما يريان أثناء النوم،
 وذهبا يبحثان عن شخص يجيد تعبیر الرؤى، حتى وصلا إلى يوسف عليه السلام فقالا ﴿
 نَبُّنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

** والملك يستعظم رؤياه، فيجمع لها الكهان، ويطلب منهم تأويلها، فيقولون إنها
 أضغاث أحلام !! ورغم مكانة هؤلاء المؤولين في زمانهم، إلا أن ذلك لم يشفع عند
 الملك في نسيان منامه، وظل يطلب لرؤياه معبراً، حتى ساقه ساقيه -الذي كان
 مع يوسف عليه السلام في السجن- إلى يوسف، فعبر له ما رأى، فكانت مكافأة يوسف
 أن يخرج من السجن، ويقبل منصب العزيز.

" والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث: رؤيا يوسف، ورؤيا صاحبي السجن، ورؤيا
 الملك. وطلب تأويلها في كل مرة، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله
 في مصر وخارج مصر كما أسلفنا وأن الهيئة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من
 روح العصر وجوه، على ما نعهد في معجزات الأنبياء، فهل كانت هذه هي معجزة
 يوسف؟" (١)

ثالثاً: اعتقادهم في تأثير السحر

*** تعريف السحر:

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "قال الراغب وغيره السحر يطلق على معان..
 أحدها: ما لطف ودق ومنه سحرت الصبي خادعته واستملته وكل من استمال
 شيئاً فقد سحره ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس ومنه قول
 الأطباء الطبيعة ساحرة ومنه قوله تعالى بل نحن مسحورون أي مصروفون
 عن المعرفة ومنه حديث إن من البيان لسحراً.

الثاني: ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ من صرف
 الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى يخيل إليه من
 سحرهم أنها تسعى وقوله تعالى سحروا أعين الناس ومن هناك سمو موسى ساحراً

(١) في ظلال القرآن.

وقد يستعين في ذلك بما يكون فيه خاصية كالحجر الذي يجذب الحديد المسمى المغنطيس.

الثالث: ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر.

الرابع: ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم " (١)

وأجمع ما قرأت في تعريفه في الشرع أنه "أمر خارق للعادة صادر عن نفس شريفة لا يتعذر معارضته، يؤثر في المسحور بإذن الله ﷻ" (٢).

وله أشكال كثيرة، فمنه التمام والرقى والودع والرمل والعزائم والعقد.

والأدلة على وجوده ووقوعه كثيرة من القرآن والسنة...

فمن القرآن قوله ﷻ ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومن السنة ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت ﴿ سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل فقال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر قال وأين هو قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رعوس نخلها رعوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخراجته قال قد عافاني الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا فأمر بها فدفنت ﴾ (٣).

(١) فتح الباري - ابن حجر - (١٠ / ٢٢٢)

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٣١ / ٣٨٩)

(٣) صحيح البخاري - طوق النجاة - (٧ / ١٣٦)

*** موقف الشرع من السحر:

يعد الإسلامُ السحرَ من الموبقاتِ أي المهلكات، ومن ثم فلا يجوز تعلمه ولا تعليمه، ولا إعطاء أجره عليه. قال ﷺ ﴿ اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ﴾ (١) وأكل أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد. وكان الكهنة هم الذين يزولون أعمال السحر. ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر؛ ويذول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها « علماء الأديان! » فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة!

وقد تعاطى المصريون قديماً السحر، ونلمح هذا الأمر إذا حاولنا استقراء مادة (السحر) في القرآن الكريم، فقد وردت ستين مرة، اتجهت في أكثر من ثلثها (٤٢ مرة) إلى أهل مصر حاكماً وشعباً، وفي غالب ما بقي وردت في شأن الكفار عموماً. وفي هذا إشارة إلى مدى تعاطي المصريين للسحر وتفاعلهم معه. وذلك في أشكالٍ عدة أبرزها:

أولاً: تعلمه وتعليمه.

قال ﷺ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾. وقال ﷺ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ و قال ﷺ ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾، ونلمح في الآيات ما يلي:

- ١- اختلاف الوصف في الأوليين بين ساحر، وسحار ثم البيان في الثالثة أن هناك من هو أكبر من الاثنين (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر).
- ٢- وصف الساحر ب(العليم) ووصف موسى بأنه (عَلَّمَهُم) وهما كلمتان مشتقتان من العلم.

(١) متفق عليه.

٣- طلب الملأ من فرعون أن يبعث في كل مدن مصر، ليأتوه بكل ساحر، وهذا يشير إلى انتشار هذا الأمر بينهم ووجوده في كل المدن.

ثانياً: تقديره.

فللساحر مكانة كبرى عند الحاكم وعند المحكومين... يشير إلى مكانتهم وتقديرهم عند الحاكم قوله ﷺ ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾. "إنهم محترفون... يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله، وإفراده - سبحانه - بالحاكمية؛ وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقررون سلطانه باسم الدين! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين! ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القريب منه، زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد.. وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل؛ إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة، التي لا يقف لها الساحرون ولا المتجبرون! ولقد اطمأن السحرة على الأجر، واشربيت أعناقهم إلى القريب من فرعون، واستعدوا للحلبة" (١).

ويشير إلى تقدير الناس لهم قوله ﷺ ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلْنَا نَنْبَغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾. ولعل مما يستأنس به هنا قولهم لموسى ﷺ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وهذا منهم تلطف مع موسى ﷺ في العبارة، فإن السحر عندهم لم يكن مذموماً، كما كان غالب علماء زمانهم من السحرة. قاله ابن كثير.

ثالثاً: هيئته.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٢٧٠)

قال ﷺ ﴿ فَلَمَّا أَلْفَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾
 " وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم، لنذكر أي سحر كان. وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا {أعين الناس} وأثاروا الرهبة في قلوبهم: {واسترهبوهم} لنتصور أي سحر كان. ولفظ « استرهب » ذاته لفظ مصور. فهم استجاشوا إحساس الرهبة في الناس وقسروهم عليه قسراً. ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآني الآخر في سورة طه، أن موسى ﷺ قد أوجس في نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان! " (١)
رابعاً - من معالم الحياة الدينية عند المصريين - : تأليه الحاكم..

سواء نصب نفسه إلهاً، أو نصبه الشعب..
 والحاكم حين يدعي ذلك لنفسه، لا يأتي به مرة واحدة، إنما يتدرج شيئاً فشيئاً، وينتظر بعد كل خطوة ليرى ردة فعل الناس على ما يدعيه، فإن لم يجد منهم حراكاً انتقل إلى المرحلة التالية،
 وفرعون قد سلك هذا المسلك فكان أول ما قال لقومه ﴿ ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فهو يدعي لنفسه الكمال المطلق في القول والفعل،
 حيث إنه لا يجري عليه الخطأ فيما يراه، وكل ما يراه سليم مسدد !!
 ولما لم يجد من يرد عليه، قفز إلى المرحلة التالية فقال ﴿ أنا ريكم الأعلى ﴾
 والربوبية تطلق على الخالق كما تطلق -مقيدة- على المخلوق، فيقال رب البيت، ورب العمل.. وهكذا،
 وقد ادعى فرعون لنفسه ربوبية قومه كلهم -والربوبية تحمل معنى التلطف وتحمل كذلك معنى السيادة والتنزيه- وأراد أن ينطلق من هذا الادعاء إلى ما بعده وهو ادعاء الألوهية..... ولم يجد أيضاً من يرد عليه.
 ثم انتهز فرصة غضب الناس من موسى ﷺ -إذ ذكَّره أمامهم بجريمة القتل التي ارتكبها قبل أن يهرب من مصر إلى مدين- وألقى كلمته قبل الأخيرة لموسى أمام الناس، فقال: ﴿ لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولم يجد أيضاً من يرده !

(١) في ظلال القرآن (٣ / ٢٧١)

وهنا وصل للمرحلة الأخيرة فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ يقول ابن كثير رحمه الله: " يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة -عنه الله - كما قال ﷺ (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) [الزخرف: ٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم؛ ولهذا قال: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، وقال تعالى إخباراً عنه: { فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [النازعات: ٢٣ - ٢٦] يعني: أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصْرِحاً لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال (لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْهَاءُ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) [الشعراء: ٢٩].^(١)

ومن سخافة تفكيرهم وظلمة عقولهم في تصديقه أنهم كانوا يقسمون به، كما حكى ﷺ عن السحرة: ﴿ فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ خامساً - مما اتسمت به الحياة الدينية في مصر أيضاً: - لا توجد حرية دينية

ونلمح هذا التضيق في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، منها:

أولاً: قول الله ﷻ حاكياً عن فرعون ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾.

وقد كان هذا هو رأي فرعون وهامان وقارون (اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم).. إنهم لا يهددون بقتل الذين آمنوا، لكن بقتل أبنائهم !! وبأقل نظرة لهذا النص الكريم، نفهم أنه مساومة منهم للمؤمنين على ترك دين موسى في مقابل الحفاظ على حياة أبنائهم !!!

(١) تفسير ابن كثير - (٦ / ٢٣٨)

" ولقد كان فرعون في أيام مولد موسى قد أصدر مثل هذا الأمر. وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول.. الاحتمال الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده، ولم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد، ويعرف تربيته في القصر، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل. فحاشيته تشير إلى هذا الأمر، وتوحي بتخصيصه بمن آمنوا بموسى، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه.. والاحتمال الثاني: أنه كان فرعون الأول الذي تبنى موسى، ما يزال على عرشه. وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته. فالحاشية تشير بتجديده، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف." (١)

ثانياً: قول الله ﷻ ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه... ﴾. وفي كتم هذا الرجل لإيمانه إشارة إلى خوفه من إعلان مخالفتهم في العقيدة، وفي عبادة فرعون !!

ثالثاً: ما حكاه القرآن عن امرأة فرعون رضي الله عنها، قال ﷻ ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، فرغم أنها زوجته، إلا أنه لم يعطها الحرية في اعتقادها، وساومها.. إما ترك دين موسى أو الموت !! فاختارت الموت.

أخرج ابن جرير بإسناده عن القاسم بن أبي بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فنقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

(١) في ظلال القرآن

رابعاً: قول الله ﷻ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الأعراف]

" هكذا.. { آمنتم به قبل أن آذن لكم! }.. كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق - وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها - أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم - وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً - أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم - وهم أنفسهم لا يمسون مداخلها. أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يطمسوا الإيمان وهو يتفرق من الأغوار. أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين!

ولكن الطاغوت جاهل غبي مطموس؛ وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور!

ثم إنه الفرع على العرش المههد والسلطان المهزوز: {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها }.. وفي نص آخر: { إنه لكبيركم الذي علمكم السحر } والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى « رب العالمين ».. هي التي تزعج وتخيف.. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين. وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتتحية شريعته. وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشعرون للناس ما يشاءون، ويعبدون الناس لما يشعرون!.. إنهما منهجان لا يجتمعان.. أو هما دينان لا يجتمعان.. أو هما ريان لا يجتمعان.. وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون.. ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين. فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقى السحرة ساجدين. قالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي توله فرعون، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين!

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع:

{ فسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف، ثم لأصلبنكم أجمعين }..

إنه التعذيب والتشويه والتتكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.. (١)

كما عرض القرآن هذه الصورة في موطنين آخرين..

قال ﷺ ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه ٧١]

وقال ﷺ ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٤٩].

وأخيراً: قول الله ﷻ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال ابن كثير: قال العوفي، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمرنا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة " (٢).

سادساً - مما عرف عن المصريين في تدينهم - الرجوع إلى الله، لكن في اللحظات الأخيرة:

ونرى هذا الأمر واضحاً في صورتين حكاها القرآن الكريم..

الأولى في سورة القصص: قال ﷺ ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَأُوْحِظُّ عَظِيمٌ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمَلَ صَالِحًا وَلَا يُقَالُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة القصص]. إن هؤلاء الذين تمنوا بالأمس أن

(١) في ظلال القرآن - (٣ / ٢٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٨٩.

يكونوا مكان قارون، لم يستمعوا لنصح العلماء وإرشادهم، ولم يفيقوا من حلمهم وابتبها من غفلتهم إلا حينما رأوا الأرض تبتلع قصر قارون بمن فيه وما فيه !!! ساعتها فقط انتبهوا، وثابوا إلى رشدهم.

الثانية في سورة يونس: قال ﷻ ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَعَافُونَ (٩٢) ﴾. [سورة يونس]. وها هو فرعون يغتر بقوته، ويظن نفسه إلهاً حقاً، ويغفل عن سحر موسى -الذي ادعاه عليه وما هو إلا تأييد من الله لنبيه- فيخوض البحر اليابس بجنده خلف موسى، وما إن يعبر موسى ومن معه، ينطبق البحر على فرعون ومن معه فيغرقهم أجمعين، ساعتها.. وساعتها فقط أيقن فرعون أنه ليس سوى بشر، وأن موسى ليس بساحر، وأنه لا إله إلا الله، لكن كيف يقبل منه وهو لا يعرف حتى اسم هذا الإله !!! وأظن والله أعلم أن هذه الحادثة هي مورد المثل المصري: (لا نذكر الله إلا وقت الغرق)!!

سابعاً: تحريك العقيدة لهم:

قال ﷻ ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾. وقد استأنست بهذه الآية الكريمة منذ قليل عند الحديث عن التضييق على المصريين في عقائدهم، وأعيد الاستئناس بها هنا؛ حيث إن فرعون لعنه الله يستخدم العقيدة والحرص عليها سلاحاً يحرك به المصريين لمواجهة موسى، ويحاول أن ينتزع منهم إقراراً -وقد نجح في ذلك فعلاً- أن يقتل موسى ومن معه؛ لأنه -أي موسى ﷺ- يريد أن يبدل لهم دينهم!!! وأغلب الظن أن هذا الكلام صدر من فرعون إلى خاصته في قصره، قبل أن يستقل أمر موسى ودعوته، وقد أراد بعد ذلك أن يقهر موسى أمام الناس، وأن يعلن عجزه على الملأ حتى لا تقوم له قائمة، فجمع السحرة -ولعلمهم هم الكهنة- لمناظرة عملية في السحر، وجمع الناس ليحضروا هذه المناظرة، وبدأ السحرة فألقوا حبالهم وعصيهم، وألقى موسى عصاه!!! وكما تفاجأ الناس بقوة سحر الكهنة وما

فعلوه، إلا أن مفاجأتهم، وكذلك مفاجأة السحرة - بما فعله موسى عليه السلام في نظرهم - كانت أشد، وهنا انقلب السحر على الساحر، وإذا بالإيمان يلامس قلوب هؤلاء السحرة، وإذا بهم يعلنونها صريحة مدوية: ﴿ آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾. أما فرعون فلم يملك - وقد تملكه العجب مما رأى - إلا أن يستخدم آله العسكرية في إرهاب هؤلاء السحرة الذين انقلبوا عليه، ولم يستأذنوه قبل إيمانهم !! " ولكن النفس البشرية حين تستعلي فيها حقيقة الإيمان؛ تستعلي على قوة الأرض، وتستهن بآس الطغاة؛ وتتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحترق الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟.. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق..

﴿ قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون. وما نتقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين ﴾، ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾، ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾...

إنه الإيمان الذي لا يفرع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع أو يخنع... الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاه، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره: {قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون}.. والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يدهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة " (١).

(١) في ظلال القرآن - (٣ / ٢٧٤) بتصرف.

وثامناً: مما امتازت به الحياة الدينية عند المصريين قديماً كثرة الوعظ والنصح..

- فقارون يلقي النصيحة من قومه..

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

- وأهل الدنيا يتفون النصيحة والموعظة من العلماء

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾.

- ومؤمن آل فرعون ينصح لهم....

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا... يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ... وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ... يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ... وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾.

والذي يمعن النظر الآن في أهل مصر يجد بقايا من هذه المعالم في حياتهم الدينية..

فلا يزال كثير منهم يتطهرون ببعض أشياء، ولا يزالون يطلبون معبرين لرؤاهم، ولا يزال تعاطي السحر موجوداً، ولا يزال كثير منهم لا يشغل باله بما يفعله الحاكم وحاشيته، طالما أنه حي معافى رغم قيام ثورة الخامس والعشرين من يناير التي قضى فيها شهداء كثيرون، بذلوا دماءهم في مواجهة الطغيان حتى يعود للوطن مجده وللنسان كرامته !!

وهكذا في البقية. هذه هي أبرز المعالم التي ذكرها القرآن عن الحياة الدينية عند المصريين، ويتبع ذلك الكلام عن الحياة الاجتماعية.

المبحث الثاني الحياة الاجتماعية

وأعني بها مجموعة العادات والتقاليد والقيم التي برزت في المجتمع المصري القديم.

وقد أشار القرآن إلى كثير منها، وذلك على التفصيل التالي..

١- وجود طبقات اجتماعية متفاوتة:

عمل النظام الحاكم في مصر قديماً وحديثاً على تفتيت الشعب إلى فرق وجماعات صغيرة؛ حتى يستطيع التغلب عليه، قال ﷺ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ ﴾..

وكان من الواضح أن هناك فئتين رئيسيتين في المجتمع المصري، خاصة على عهد موسى ﷺ، فهناك فئة الخاصة، وفئة العامة.. سماهما القرآن بالمستكبرين والضعفاء، وأشار إلى طرف من حوار يكون بينهم يوم القيامة، يدل على طبيعة العلاقة بين الفئتين، قال ﷺ ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾.

يقول ابن كثير رحمه الله: " يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم { فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ } وهم: الأتباع { لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } وهم: القادة والسادة والكبراء: { إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا } أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، { فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ } أي: قسطاً تتحملونه عنا.

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا } أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. { إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا^(١)،

"والسياق يلتقط لهم موقفاً في النار! وهم يتحاجون فيها:

(١) تفسير ابن كثير - (٧ / ١٤٩)

{فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً. فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟}

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار! لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسانية. وكرامة التبعة الفردية. وكرامة الاختيار والحرية. ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً. تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملا والحاشية. لم يقولوا لهم: لا. بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.. { إنا كنا لكم تبعاً }.. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيحاً لهم عند الله. فهم في النار. ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة. سوق الشياه! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم: { فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟ }.. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشر والضرر وكيد الأعداء!

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا، ويجيبونهم في ضيق ويرم وملاة. وفي إقرار بعد الاستكبار:

{ قال الذين استكبروا: إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد. }

{ إنا كل فيها }.. إنا كل ضعاف لا نجد ناصرًا ولا معيناً. إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤلكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟

{ إن الله قد حكم بين العباد }.. فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله^(١).

وكل فئة من الفئتين تنقسم درجات، وذلك على النحو التالي:

**** فهناك في الفئة الأولى طبقة أهل الحكم...**

(١) في ظلال القرآن - (٦ / ٢٦١)

مثلت على عهد يوسف عليه السلام في (الملك)، ثم في يوسف عليه السلام نفسه بعد خروجه من السجن ونقله أمر الخزانة، وعلى عهد موسى عليه السلام في (فرعون).
* * وهناك طبقة الوزراء والأعوان ...

وهذه تتمثل في عزيز مصر، ونبي الله يوسف عليه السلام، وكذلك شاهد براءته، ثم هامان.

* * وهناك طبقة الأغنياء ...

والتي مثلها مجتمع النسوة على عهد يوسف عليه السلام ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، كما مثلها قارون على عهد موسى، قال عليه السلام ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾.

* * وطبقة العلماء ... وهذه تتمثل في:

• يوسف عليه السلام

فقد كان عالماً اقتصادياً كبيراً، قال عليه السلام ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ كما كان عالماً بتأويل الأحلام، قال عليه السلام ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾.

• موسى عليه السلام ..

قال عليه السلام ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾، وقد كان أعلم بني إسرائيل.

• الخضر عليه السلام

وكان أعلم من موسى عليه السلام، قال عليه السلام ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾، أخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ مُوسَى عليه السلام بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ قَوْمَهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ قَالَ لَهُمْ " مَا فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنِّي ". وَأَوْحَى اللَّهُ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تُرَوِّدَ حُوتًا مَالِحًا فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ

حَيْثُ تَقَدُّهُ... وفيه.... ((حَتَّى إِذَا أَنْتَهَيْتَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَظَافَ بِهَا فَإِذَا هُوَ (أَيِ) الخضر عليه السلام كما عند البخاري) مُسَجَّى بِثَوْبٍ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مُوسَى. قَالَ: مَنْ مُوسَى؟ قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّ عِنْدَكَ عِلْمًا فَأَرَدْتُ أَنْ أَصْحَبَكَ... الحديث.

• قارون

وقد كان عالماً بالكيمياء - كما تقدم - قال عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

• عموم العلماء:

والذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله عليه السلام ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾.
* * * وهناك - في الفئة الثانية - طبقة العامة...

وهذه نلمحها في صاحبي يوسف في السجن ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾، وفي قول الله عليه السلام ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ..... وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَفِّرَنَّ اللَّهُ بِبَيْسُطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَفِّرُنَا لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾. وقوله عليه السلام ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾
* * * وهناك طبقة العبيد...

وقد كانوا على عهد موسى من بني إسرائيل، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قول الله عليه السلام ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾.

٢ - عصبية كل فئة لأهلها

وهذا بدا واضحاً في مواقف كثيرة، منها:
أولاً: تأمر أهل القصر على يوسف عليه السلام،
فقد كان حينئذٍ من غير طبقتهم، قال عليه السلام ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾.

وأخراً: انتصار موسى ﷺ - في المرتين - للذي من شيعته على الذي من عدوه، قال ﷺ ﴿فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾.

٣- وجود عيد اجتماعي..

سماه القرآن "يوم الزينة" قال ﷺ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ قال العلامة ابن كثير: "وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم"^(١).

٤- تقدير الحياة الأسرية.

وفي إثبات هذه الجزئية نستعرض الآيات التالية..

• قال ﷺ ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

فعزیز مصر لم يكن يأتي النساء، ولم يكن التبنی محرماً، فأحب إذ حرمت زوجته منه المعاشرة، أن يتبنيا ولداً، يؤانسها في البيت، خاصة مع انشغال العزيز بذلك المنصب الكبير، وعدم تفرغه لها.

• قال ﷺ ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

إن يوسف ﷺ لا يبحث عن قرابته الأولين فقط، بل يريد كل من يتعلق بهم وتربطه به قرابة، (وأتوني بأهلكم أجمعين).

• قال ﷺ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾.

وفي هذه الآية نلمح تدخل الأهل في المشكلات الأسرية لحلها، والستر عليها.

• قال ﷺ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن المرأة هنا تستنفر نخوة الرجل، وتلعب على الوتر الحساس عنده، قاتلة بلسان الحال: "إن البيت يكاد يهدم، والرجل يراود زوجته عن نفسها، فلا بد من معاقبته".

(١) تفسير ابن كثير - (٥ / ٣٠٠)

• قال ﷺ ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْلُوبُهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۗ ﴾ .

• قال ﷺ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۗ ﴾

والآيتان مكملتان لقصة تبنى موسى ﷺ، وتذكير فرعون له بها يشي بنوع من اللوم لموسى ﷺ كيف أنه لم يقدر السنوات التي قضاها وليداً في قصر فرعون، ونشأته فيه وكأنه واحد منهم !!!.

• قال ﷺ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۗ ﴾ .

والأهل هنا هي زوجته، والقرآن الكريم كرر هذا الجزء من القصة في سورتي طه، النمل، وكرر في كل مرة إبقاء موسى لأهله بعيداً عن النار، التي لا يعلم أصلها ولا من حولها، فخوفه ﷺ على أهله هو الذي دفعه إلى ذلك.

• قال ﷺ ﴿ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى النَّبَابِ ۗ ﴾

والسيد - من البشر - الرئيس والإمام في الخير كما تقول العرب فلان سيدنا أي رئيسنا والذي نعظمه (١) واستخدام القرآن لهذه اللفظة للتعبير عن الزوج، خاصة الزوج المصري، يشير إلى طبيعة الحياة الأسرية في مصر منذ القدم، وأن الرجل هو الذي يتحمل الأعباء الجسام، وأن له كلمة مسموعة مطاعة في بيته، فهو في بيته السيد (أو سي السيد) لكن ليس كما يصوره الإعلام الجاهل الفاسد، ببطشه وقسوته، لكن بحفاظه على أسرته ورعايته لها وخوفه عليها، كما كان من موسى ﷺ حين قال لأهله - أكثر من مرة - "امكثوا... إني آنست ناراً".

٥- التسلية والترفيه:

فقد وصف الله ﷻ فرعون بأنه ذو الأوتاد، قال ﷺ ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۗ ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۗ ﴾ .

أخرج الطبري في هذه الآية بإسناده عن ابن عباس (وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ) قال: كانت ملاعب يلعب له تحتها (٢).

(١) لسان العرب - (٣ / ٢٣١)

(٢) تفسير الطبري - (٢١ / ١٥٨)

٦- شيوخ الأمن في المجتمع.

وهذه هي السمة الغالبة، كما قال ﷺ ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾. على أنه قد يعترض معترضٌ قائلاً: كيف توجه خوف موسى -على نفسه- القتل، وهو في مصر؟

فالجواب من وجوه: الأول: أن الآية تتحدث عن زمان غير زمان موسى ﷺ. الثاني: أنه اتهم بالقتل، وطبيعي أن يخاف من كان حاله هذا، في مجتمع يهتم بأمن أفراده الأصليين. والآخر: أنه أصلاً من بني إسرائيل، وهم كانوا مستضعفين من فرعون وقومه، وقد أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله عن الثوري ﷺ في تفسير قول الله ﷻ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ مِمِّصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم^(١).

٧- دور المرأة وقيمتها في المجتمع المصري:

من حديث القرآن الكريم عن المرأة المصرية في مختلف العصور، يتبين لنا ما يلي:

أولاً: أنها امرأة عاملة..

وكان الإرضاع، وحضانة الأولاد (كفالتهم) أشهر عمل حكاه القرآن من أعمال المرأة المصرية في القديم، قال ﷺ ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾. يقول الحافظ ابن كثير: " وذلك أنه لما استقر موسى ﷺ بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك. فخرجوا به إلى سوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته (أخته) بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها. قال ﷺ ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: تحريمًا قَدْرًا، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله ﷻ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٨٩.

أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}.

ثانياً: أنها امرأة تتحمل المسؤولية..

ويبدو هذا الوصف واضحاً في شخصيتين:

• السيدة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، وقد كانت من مصر،

وقد تركها زوجها إبراهيم عليه السلام مع رضيعها إسماعيل عند البيت الحرام، في مكان لا جار فيه من الناس، وليس به أدنى مقومات الحياة، واستطاعت بفضل الله تعالى أن تجتاز هذه الأزمة وأن تتأقلم مع الظروف التي حولها، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

• أخت موسى عليه السلام

حين كلفتها أمها بمراقبة أخيها ومعرفة مكانه وأحواله، فقامت بمهمتها كما ينبغي، واستطاعت بتدبير الله تعالى لأخيها أن تعيد أباها إلى أمه. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾.

ثالثاً: أنها تستطيع التأثير على زوجها..

ويبدو هذا جلياً في موقفين لامرأتين..

الأول: موقف امرأة العزيز؛ حيث كانت الداعي الأول لسجن يوسف عليه السلام وهو بريء، فقالت لزوجها: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقالت لصويحباتها: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

!!

ومع ذلك فقد استجاب لها زوجها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

والآخر: موقف امرأة فرعون من موسى عليه السلام، إذ تلقفته من اليم، واستطاعت أن تستنثيه من قرار الحاكم العام (فرعون) بقتل كل الذكور ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

المبحث الثالث... الحياة الاقتصادية

اقتصاد أي بلد في العالم يقوم على ثلاثة أمور: الثروة البشرية، والموارد الطبيعية، ومدى استغلال البشر لهذه الموارد الموجودة تحت أيديهم. سواء كان ذلك بالزراعة أو الصناعة أو التجارة..

أما العنصر البشري فموجود في كل مكان، فلكل شعب وطن يسكنه (١)، وأما الموارد الطبيعية وأعني بها (المناخ الجيد، مصادر المياه، التربة الخصبة، المعادن الموجودة في باطن الأرض، إلى آخره). فحدث عنها ولا حرج.. وقد منَّ الله ﷻ على مصر بمكان رائع بين بلاد العالم، جعلها من أفضل الأماكن مناخاً في العالم، حتى قصدها الناس من كل مكان صيفاً وشتاءً. كما أنه من المعروف أن نهر النيل موجود بها، وهو من أطول أنهار العالم، إن لم يكن أطولها فعلاً.

ووجود هذين الأمرين يوفر لأرض مصر خصوصية، تجعلها تقبل كل المزروعات التي يحتاجها الإنسان.

وعن المعادن في باطنها حدث ولا حرج...

ونظراً لهذا كله، جاء وصفها في القرآن بأنها مقام كريم، قال ﷻ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وقال ﷻ ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِبِينَ ﴾.

(١) وقد قضى الله ﷻ بذلك، كما قضى على اليهود أن لا يكون لهم وطن محدد، قال ﷻ ﴿ وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله " جاء قوله تعالى { اسكنوا الأرض } هكذا دون تقييد بمكان معين، لينسجم مع آيات القرآن التي حكمت عليهم بالتفرق في جميع أنحاء الأرض، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه، كما قال ﷻ ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا.. ﴾ والواقع يُؤيد هذا، حيث نراهم مُتفرِّقين في شتى البلاد، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحددة لهم يتجمعون فيها، ولا يذوبون في الشعوب الأخرى، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها ".

ولذا فإنه يمكن القول إن مصر لديها مقومات تجعلها أغنى بلاد العالم كله. وقد بلغت مصر درجة من الغنى جعلت الفائزين على أمورها في كل عصر يتفاخرون بما تحت أيديهم ويتباهون به !!

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك المعنى في أكثر من موطن.. من ذلك:

- قول الله ﷻ ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمِ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾.

إن هذا الكلام وقع على أرض مصرية، والحديث في الآية الأولى عن أرض مصر يقيناً، أما الأرض في الآية الثانية فلنا أن نمشي مع سائر المفسرين ونقول إنها أرض مصر، ويكون تعريفها في المرتين دليلاً على عظمة امتلاكها. ولنا أن نعتقد أن المقصود بها الأرض كلها، ويكون ملكها تبعاً لملك أرض مصر، وكأن المعنى أن من ملك أرض مصر جدير أن يملك العالم كله. ويقوي هذا المعنى:

- قول الله ﷻ ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ والمعنى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتكم رسوله.

والملك الذي كان بين أيديهم ملك مصر، وهم بهذا الملك ظاهرون في الأرض، كل الأرض.

- قول الله ﷻ ﴿ وَتَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾. وتباهيه بملك مصر، وذكره مقومات هذا التباهي بوجود نهر النيل وأبار وعيون كثيرة في أرض مصر.

- أن الآيات التي ذكرت مصر في القرآن الكريم - وقد تقدمت في الفصل الأول - قد ورد منها ثلاث عشرة آية تصف مصر بأنها (الأرض) !! وهذا التعبير - في سياق الحديث عن قوة اقتصاد مصر - له دلالاته، التي لا ينبغي إهمالها.

كل هذا يشير إلى قوة مصر الاقتصادية. مما يجعلنا نقول: إن مصر بلد غني، بل هي أغنى دول العالم قديماً وحديثاً، ونفهم هذا الأمر من القرآن الكريم حين نستعرض النصوص القرآنية بشيء من التفصيل، فنقول..

• مصر والزراعة...

* قال ﷻ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف الآية ١٣٠، ١٣١]

إن العقاب الذي ينزل بالأفراد أو بالأمم يكون بسلب النعم أولاً قبل أن يكون بالإهلاك، ومعنى أن أهل مصر ابتلوا بالسنين ونقص من الثمرات أنهم كانوا ينعمون بالمطر، وبألوان شتى من الزروع والحيوانات.

ومعنى الآية أننا اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم {بِالسِّنِينَ} وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع {وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ} أي قلة الثمار. فالزرع -على قلته- لا ينتج إلا ثماراً قليلة. وقد ورد "عن رجاء بن حيوة قال: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة".^(١)

ولنا أن نفهم من الآية أن هذه العقوبة لأهل مصر جاءت على خلاف ما اعتادوه من كثرة الزروع وكثرة الثمار، فإن العقوبة غالباً تكون أولاً بالحرمان من الخير. وقد أوضح الزمخشري ذلك فقال: « فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ { فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ } ب " إذا " وتعريف الحسنه، و{ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ } ب "إن" وتكبير السيئة؟ قلت: لأنَّ جنسَ وقوعه كالواجب واتساعه، وأمَّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها ». انتهى. وهذا من محاسن علم البيان "

** ولما طلب بنو إسرائيل من موسى ﷺ ألواناً شتى من الزروع والثمار؛ لأنهم ملوا كثرة المن والسلوى، وجههم إلى مصر.

(١) تفسير ابن كثير - (٣ / ٤٦٠)

قال ﷺ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْتُلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ [سورة البقرة الآية ٦١].

وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: "اهبطوا مصر" من غير إجراء يعني من غير صرف، ثم روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضاً.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله ﷺ ﴿ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟.

* * كما كنى القرآن الكريم عن أرض مصر بالجنات والعيون والزروع، مما يشير إلى خصوبة تربتها، وكثرة المزروعات فيها..

قال ﷺ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وقال أيضاً ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ فالجنات: البساتين، والعيون: الأنهار والآبار، والمقام الكريم: المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. قاله ابن كثير.

وعن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، ونلله له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

وقال ابن لهيعة في قوله تعالى: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ): كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة

لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.

{ وَنَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ } أي: عيشة كانوا يتفكحون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد " (١)

** وفي أزمة الغذاء العالمية التي ألمت بالعالم قديماً على عهد يوسف عليه السلام جعل الله ﷻ مصر سفينة النجاة للعالم كله من الموت جوعاً، إذ رأى ملك مصر رؤيا أفزعته: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

ويأتيه تأويلها، وزيادة، من نبي الله يوسف عليه السلام وهو في محبسه، يؤولها له وينصح في كيفية مواجهة السنوات العجاف، يؤول لها السبع بقرات السمان والسبع العجاف ويشره أن العام الخامس عشر سيكون عام رغد وخصب ونماء.

ولقد كان الناس يأتون من كل مكان إلى أرض مصر ليأخذوا نصيبهم من الغلال المصرية، وكان فيمن جاءوا إلى مصر، إخوة يوسف، وكانوا بأرض فلسطين.. والذي نخلص به من هذه الآيات أن الله ﷻ قد حبي مصر إمكانات زراعية هائلة، يمكن لأهلها بها أن يستغنوا ذاتياً عن حولهم، بل يقدمون لهم يد العون في هذا الجانب.

• أشهر الزراعات في مصر القديمة

ومما اشتهرت مصر بزراعتها قديماً، وحكاها القرآن الكريم،

أولاً: القمح:

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، في سورة يوسف، قال ﷻ ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٣/٧) بتصرف يسير.

سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٨﴾.

والمعنى كما يقول ابن كثير: "يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تُسْتَعْل منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضراء، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: { فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ } أي: مهما استغلتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحَل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السَّمَان؛ لأن سنى الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعُوهُ في سنى الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: { يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ }

ثانياً: النباتات الزيتية.

وقد أشير إليها أيضاً في سورة يوسف في قوله ﷻ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال بعض المفسرين: إنهم يعصرون العنب. وقال بعضهم: كل ما يمكن عصره من حبوب أو ثمار، مثل: السمسم، والزيتون، والعنب، والقصب، أو البلح.

ثالثاً: البقوليات.

وقد أشير إليها في قوله ﷻ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ فالبقول والقتاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما "الفوم" فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود "وثومها" بالثاء، وقال بعضهم: هو الحمص، وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبز.

رابعاً: الجنات والبساتين

والجنة كما ورد في كتب اللغة هي الحديقة ذات النخل والشجر والبستان. وقال أبو علي في التذكرة لا تكون الجنّة في كلام العرب إلا وفيها نخلٌ وعنبٌ فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنّة " (١)

وقد عبر القرآن الكريم عن وفرتها في أرض مصر مرتين..

قال ﷻ ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَ زُرُوعٍ ﴾

وقال ﷻ ﴿ فَأَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَ كُنُوزٍ ﴾

والتعبير بالجمع مع التذكير (جنات، عيون، زروع) له دلالة التي لا تخفى في إفادة الكثرة، كما أن اللفظين المستخدمین في الآيتين يعبران عن الماضي الذي تركه فرعون وجنده حين تركوا أرض مصر، والمستقبل الغائب الذي فاتهم بإخراجهم منها.

• تربية الحيوانات في مصر

استخدم المصريون قديماً الحيوانات في العمل، وفي الإعاشة من لبنها ولحمها، كما كانوا يعدون تملكها من الغنى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك

** ففي سورة البقرة ترد قصة (البقرة) التي كان من أوصافها أنها ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ كما كان من أوصافها أيضاً ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾.

كما يفهم من القصة أيضاً كثرة الأبقار قديماً، ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا ﴾ قال ابن كثير: " وقوله: { إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا } أي: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلّها لنا"

** وفي قوله ﷻ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس { وَفِيهِ يَعَصِرُونَ } يحلبون.

(١) لسان العرب مادة جنن (١٣/٩٣)

• مصر والثروات الطبيعية..

كانت مصر ولا تزال تمتلك كثيراً من الثروات الطبيعية في محيطها الجغرافي،

أولاً: نهر النيل

وهو أعظم أنهار العالم، كما أنه من أنهار الجنة ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعت إلى السدرة فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فأما الظاهران النيل والفرات.. الحديث.

وقد كان مصدر فخر عند المصريين قديماً، وقد حكى القرآن الكريم قول فرعون لقومه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين.

ثانياً: الثروات التي في باطن الأرض التي عبر القرآن عنها ب(الكنوز)،

قال صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا.

كما ورد في حق قارون ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾، قال ابن كثير: قال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزنة على حدته، فإذا ركب حُمِلت على ستين بغلا أغر محجلاً. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

كما عبر عنها بلازمها وهي الزينة والأموال، قال صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

وتوجد إلى الآن ثروات مصرية خبأها الله عن أهل مصر في السابق استجابة لدعوة موسى صلى الله عليه وسلم ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس الآية ٨٨]. والطمس معناه الإخفاء، والمراد من الطمس على أموالهم إما أن تكون حجارة، وإما أن تذهب في الأرض - وتغور فيها فلا يعثر عليها، والمعنى الأول وارد عن السلف أخرج ابن أبي حاتم أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: وقال موسى ربنا أنك آتيت فرعون وملاه زينة وأمواالا في الحياة الدنيا إلى قوله اطمس على أموالهم الآية إلى

آخرها فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أبا حمزة أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: انتني بكيس. ف جاء بكيس، فإذا فيه حمص وبيض، قد قُطع، قد حُوّل حجارةً.

والمعنى الثاني وارد في اللغة، ويشهد له الواقع،

فاستعمال القرآن لهذه الكلمة (اطمس) التي تدل على معنى الإخفاء - لا السلب والمنع - يدل على أن أموال أهل مصر في السابق لا تزال موجودة في أرض مصر، ولعلها هي الآثار المعروفة التي تستخرج - إلى الآن - من كثير من الأماكن في أرض مصر، وتبذل فيها كثير من الأموال !!.

ولنا أن نستشهد في هذا المقام - إذا افترضنا أن رحلة موسى والخضر كانت في أرض مصر - بالكنز الذي كان مخبئاً تحت جدار في إحدى القرى (1)، قال ﷺ ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾، وقد ورد في بيان هذا الكنز أنه كان لوحاً من ذهب مُصَمَّت مكتوبٌ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك! عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن !.

• أغنى رجل عرفه العالم هو من أهل مصر !!!

وهو قارون الذي وردت قصته في سورة القصص قال ﷺ ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ [الآية ٧٦]. وقيل أن تتخيل حجم هذه الكنوز التي تحتاج إلى مفاتيح ينوء بحملها الرجال الأقوياء، يجب أن تضع في اعتبارك فارق الزمان، الذي يلزمك باعتبار فارق ليس يسيراً بين أجسامنا وأجسام السابقين منذ أكثر من ألفي سنة على الأقل لحديث أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَطَوَّلَهُ سِتُونَ

(1) مما يستأنس به في أن هذه القرية كانت على أرض مصر، أنها وصفت بالقرية، وبالمدينة قال ﷺ ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية.. ﴾ وقال ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة.. ﴾ وهما وصفان لم يسجلا في القرآن لمكان واحد إلا لمصر.

ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَيَّ أَوْلِيَّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيِيكَ تَحْيِيكَ
وَتَحْيِيَّ دُرِّيَّكَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ
فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَيَّ صُورَةَ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ ﴿ [متفق
عليه].

ثم لنا أن نتساءل بعد ذلك: من أين أتى قارون بكل هذه الأموال؟ هل سافر إلى
(الخارج) وعاد محملاً بالكنوز، أم كان مقيماً بمصر؟
وإذا كان الجواب هو الثاني - وهو كذلك فعلاً - ثبت ما قدمناه، وهو أن مصر من
أغنى دول العالم، إن لم تكن أغناها جميعاً.

المبحث الرابع الحياة السياسية

السلطة الحكومية في مصر كانت تتكون من «الملك» و«الوزير» و«الحاشية» وكان الحاكم على عهد يوسف عليه السلام يلقب بالملك، ووزيره يلقب بالعزير. بينما كان الحاكم على عهد موسى عليه السلام يلقب بالفرعون، ووزيره هامان وأطلق القرآن الكريم على حاشية الحاكم في الزمانين معاً (الملأ) والأمر ليس ببعيد في العصر الحديث عنه في العصور القديمة، وكل الاختلاف إنما هو في الألقاب فقط، حيث يلقب الحاكم في عصرنا بالرئيس، ووزيره برئيس الوزراء وحاشيته بالوزارة أو الحكومة. ونبدأ الكلام عن الحياة السياسية في مصر بمحاولة إلقاء الضوء على معاني هذه الألقاب وسبب تغيرها من عهد يوسف عليه السلام إلى عهد موسى عليه السلام...

**** الملك... والفرعون**

قبل في سبب اختلاف اللقبين رأيان: الرأي الأول: أن الحاكم على عهد يوسف عليه السلام لم يكن مصري الأصل، بل كان من الهكسوس وقال الملك انتوني به «، وأنه لا يحقّ التسمي بالفرعون إلا لملك محلي. أما بعد طرد الأجانب، فقد جازت التسمية، حتى إذا أتى عصر موسى عليه السلام، كان ملك مصر محلياً يُخاطب بالفرعون كسابقه « نَتَلُّوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَا مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » الرأي الآخر: أن كلمة فرعون بالقرآن لا يقصد بها سوى الفرعون المعاصر للنبي موسى عليه السلام، ووصفه بذي الأوتاد ليس للأهرامات فحسب، ولكن لكثرة صروحه ومنشأته وعمائره وتمائله الجبلية، ليعبده الناس. وهو أشهر الفراعنة وأكبر بناء، إذ سطا على آثار سابقه أو استخدمها ليني صروحه وتمائله هو، ولا يكاد يوجد أثر عمراني لمصر القديمة، سواء بناه أو اغتصبه، إلا وحفر عليه اسمه بعمق كي لا يُمحي.

**** العزيز ... وهامان**

أما العزيز أو عزيز مصر، فلقب الرجل الثاني فيها أيام يوسف عليه السلام، ولعل الحصانة التي كان يتمتع بها وتجعله فوق مستوى السؤال والاستجواب هي سر تلقيبه بهذا اللقب، فالعزيز لا يُسأل ولا يُراجع، ومن علامات ذلك أنه أدخل يوسف عليه السلام السجن مع علمه ببراءته ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ فوصفه بالعزيز في مقابل وصف غيره ب(الوزير) الذي يتضمن معنى المسئولية والتحمل.

ولعل كون هذه الحكومة على عهد يوسف غير مصرية أصلاً جعلتهم يمنحون أنفسهم هذه الألقاب، فالحاكم (ملك) لأنه احتل البلاد وأذل العباد، ومستشاره (عزيز) لا يحق لأحد -إلا الحاكم- مراجعته في أفعاله.

أما هامان فهو اسم وزير فرعون أيام موسى عليه السلام، وقد ورد في القرآن ست مرات. "والنحويون يذهبون إلى أن وزنه فعلا ن فأعلت عينه بالقلب و هو عندهم شاذ ونقل ابن بري عن أبي منصور الأزهري أن وزنه فاعال، وليس بشاذ".

وتوحي مادة هذه الكلمة بالحفظ والرعاية، فهي قريبة من مادة (الهيمنة)، جاء في كتب اللغة: " هَيْمَنَ: قَالَ آمِينَ كَأَمَّنَّ وَ الطَّائِرُ عَلَى فِرَاحِهِ: رَفَرَفَ وَ عَلَى كَذَا: صَارَ رَقِيبًا عَلَيْهِ وَحَافِظًا ". فهو مفتاح أمان -وصاحب سر- الحاكم، والقائم على أمر النظام كله !!! ولعله أمر مقصود أن يعبر القرآن عن هذا الرجل باسمه الذي يوحي بمعان أكثر من الوصف بالوزير أو حتى (الرجل الثاني) !!!

"ولا بد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة، كما نقول الآن: الحرس الجمهوري، و الحرس الملكي، والجيش.

أو: أن هامان يصنع من باطن فرعون، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان. أو: أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون، وربما رفع رأسه وتناول على فرعون في وقت من الأوقات.

وقد رأينا هذا عندنا في مصر؛ لذلك يقولون في المثل الريفي المعروف: تقول لمن يحاول خداعك (على هامان)؟ يعني: أنا لا تتطلي عليّ هذه الحيل " (١).

• ملحوظات عامة على حديث القرآن عن الحياة السياسية في مصر:

أولاً: طول مدة الحكم.

ويفهم هذا الأمر من قوله ﷺ ﴿ وفرعون ذو الأوتاد ﴾ ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال الطبري: " واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله قيل لفرعون ذو الأوتاد، فقال بعضهم: قيل ذلك له لأنه كانت له ملاعب من أوتاد، يُلعب له عليها. وقال آخرون: بل قيل ذلك له كذلك لتعذيبه الناس بالأوتاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: ذو البنيان، قالوا: والبنيان: هو الأوتاد. وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الأوتاد، إما لتعذيب الناس، وإما للعب، كان يُلعب له بها، وذلك أن ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد " (٢).

على أن في وصف فرعون ب(ذو الأوتاد) إشارة إلى طول مدة حكمه، وأنه كلما طال به الزمان في كرسي الحكم ازداد تمسكه به وصعب تنازله -أو إنزاله- عنه، كالوتد الذي يبرز في الأرض أو الحائط.. يزداد رسوخه في الأرض بقدر بقائه فيها.

على أن في الجمع بين اللقب (فرعون) وبين الصفة (ذو الأوتاد) لطيفة، فالفراعة تكون لأعلى، والأوتاد تكون لأسفل، فانظر إلى من هذا حاله كيف يكون تمسكه بمكانه !!!!

قوة شخصية الحاكم السياسية وسيطرته على شعبه.

قال ﷺ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ " وكأنه يريد أن يُرضي قومه، فما هو يريد أن يبحث عن الإله الذي يدّعيه موسى، وكأنه إن بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب

(١) تفسير الشعراوي - (١ / ٦٨١٩)

(٢) تفسير الطبري - (٢١ / ١٥٨)

موسى، لكن هل بنى له همام هذا الصرح؟ لم يَبْنِ له شيئاً، مما يدل على أن المسألة هُزِلَ في هُزْلٍ، وضحك على القوم الذين استخفهم ولعب بعقولهم. وإلا، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنوا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل؟ وعملية حرق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد، إذن: المسألة كسب الوقت من الخصم، وتخير الملام من قومه " (١).

أهمية رأي الحاكم عند الشعب.

ونلمح ذلك في تخصيص ربنا ﷺ لكل نبي قومه، قال ﷺ ﴿ وَاللَّيْلِ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَاللَّيْلِ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَاللَّيْلِ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ والمؤتفات قرى قوم لوط... أما حين كان الحديث عن مصر فكانت السمة البارزة توجه الرسل إلى الحكام مباشرة !!!

فيوسف تربى في قصر العزيز، ثم دخل حاشية الملك بعد خروجه من المحن التي تعرض لها - وأغلب الظن أنه أوتي النبوة في هذه المرحلة فكان أول من دعاه ملك مصر - حتى صار عزيز مصر.

وموسى ﷺ تربى في قصر فرعون، ولما وجهه الله وأخاه هارون بالرسالة وجههما إلى فرعون !!! قال ﷺ ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾، وقال ﷺ ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ وقال ﷺ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾.

وكان القرآن يؤكد على معنى معين في أهل مصر، وهو أنهم يقدر حاكمهم وينقادون لرأيه. يشير إلى هذا أيضاً قول الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

(١) تفسير الشعراوي - (١ / ٦٨٥٦).

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٦﴾. وقوله ﷻ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾.

الحكم الفردي.

ولعلك تلاحظ هذا الملمح تصريحاً وإشارة من خلال آيات القرآن الكريم..
أما التصريح فيبدو في قول الله ﷻ حاكياً عن فرعون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقوله: { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ } كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا في ذلك.

وأما الإشارة فنلاحظها من حكاية ربنا ﷻ ردود الأرقام على رسلهم ومنها...
قوم نوح ﷻ ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قوم هود ﷻ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

قوم صالح ﷻ ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

قوم شعيب ﷻ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

فكان الرد صادراً، في كل ما تقدم، عن الجميع (قالوا)

أما حين أرسل موسى ﷻ - وقد كان أرسل إلى أهل مصر - كان الذي أجابه فرعون وحده (قال) !!!

قال ﷻ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْتَأْذِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

كما نلاحظ إسناد كثير من الأفعال إلى فرعون وحده، أو صدورها عنه وحده، وقومه تبع له...

قال ﷻ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾،

وقال ﷻ ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ .

وقال ﷻ ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ .

وقال ﷻ ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾

وكل هذه الآيات ونحوها كثير يشير إلى أن فرعون كان يصدر في كثير من أحكامه عن رأيه المنفرد، الذي كان كثيراً ما يكون خطأً، وإلا استعان بالملأ من حوله، وأبرزهم هامان وقارون، اللذين لم يكونا ليخالفا له أمراً أو يبديا اعتراضاً على فعله، مما يبقي الحكم في يد الفرد الواحد أيضاً.

وانظر إلى قوله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاجِدْ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

والى قوله ﷻ ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذُرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَّكَ قَالَ سَنَقْبَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

فهل ترى تغييراً في القرار الصادر عن الحاكم قبل (الشورى) أو بعدها !!؟

الحكم العسكري

وهذا يظهر من تتبع أمرين:

الأول: ذكر الجنود في القرآن الكريم، والثاني: ذكر السجن في القرآن الكريم.

أولاً: ذكر الجنود،

وقد وردت مادة (ج.ن.د) في القرآن تسعاً وعشرين مرة، في تسع مرات منها خصت فرعون ومن معه،

قال ﷻ ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ﴾، وقال

ﷻ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾، وقال ﷻ

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾، وقال ﷻ ﴿ إِنَّ

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ وقال ﷻ ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾، وقال ﷻ ﴿ فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ ه

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾، وقال ﷻ ﴿ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ فَأَخَذْنَاَهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾، وقال ﷺ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

ولنا أن نلاحظ من خلال هذه الآيات ما يلي:

١- تبعية الجند الكاملة لفرعون، وكأنهم ظلّه يتحرك معه حيثما تحرك، نلاحظ هذا من خلال قوله ﷺ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ ﴾ وقوله ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ ﴾، وفي الباء معنى الإلصاق، كما أن في الواو معنى المصاحبة !!

٢- بغيهم، وظلمهم للناس، قال ﷺ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَغِيًّا وَعَدْوًا ﴾.

٣- خوفهم من انتفاضة المظلومين في وجوههم، ومن ثورتهم عليهم، كما قال ﷺ ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾.

٤- استكبارهم على الناس، معتمدين على اهتمام فرعون بهم، ونفضيله لهم على غيرهم، قال ﷺ ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.

٥- شمول الحكم الإلهي لهم مع فرعون ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾.

٦- عموم الوصف لأهل مصر جميعاً رغم أنهم لم يكونوا كلهم جنوداً فعلاً، مما يشير إلى وجود صفات الجنديّة في هذا الشعب (من الانضباط والقوة والطاعة) ولذلك وصفهم النبي ﷺ وصفاً عاماً بقوله ﴿ إِنَّهُمْ خَيْرَ أَجْنَادِ الْأَرْضِ ﴾.

ثانياً: ذكر السجن.

وذلك في عشرة مواطن...

قال ﷺ ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ ﴾،

وقال ﷺ ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَقَرِّفُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ،
وقال ﷺ ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا ﴾ ،
وقال ﷺ ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ،
وقال ﷺ ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ ﴾ ،
وقال ﷺ ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ .
ونلاحظ من استقراء هذه الآيات ما يلي:

- لم يذكر السجن في القرآن الكريم إلا مقترناً بأهل مصر !!!!!
- كان السجن للضحية دون تحقيق عادل في التهمة، طالما أن أحد طرفيه من القصر، والطرف الآخر من الطبقة الدونية (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه).
- كانت عقوبة السجن غير محددة (ويعرف نظيره في العصر الحديث بالاعتقال المفتوح !!)، واللفظ القرآني المستخدم يشير إلى ذلك (ليسجننه حتى حين) !!!.
- كان السجين -خاصة المظلوم- يُنسى في السجن، لولا أن تتداركه رحمة الله ﷻ، (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن) !!

قمع المعارضين.

فالحاكم المصري لا يحاور مخالفه بالحجة إنما يلجأ إلى السخرية والتهديد بالسجن واستخدام القوة.
وقد نقل القرآن الكريم صوراً من حوار فرعون مع معارضيه في الرأي، من هذه الصور:

حواره لعنه الله مع موسى عليه السلام:

أولاً: في سورة الإسراء قال ﷻ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ .

وهذا يمثل خلاصة الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله على طول القصة وعرضها، وهو يعرض الصورة الثابتة في كل حوار من هذا النوع بين الحق والباطل.. فالباطل يلجأ إلى تشويه صورة الحق (إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) والحق لا يزداد مع هذه السخرية إلا ثقة في انتصاره وفي هلاك الباطل (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا).

ثانياً: في سورة الشعراء اقرأ الحوار المذكور في هذه الآيات...

قال عليه السلام ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِنَّتَ فِيْنَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ اللَّيْلِي فَفَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

والآن قسم الآيات إلى فقرات وأعد القراءة مرة أخرى، ولاحظ معي ما يلي:

في الفقرة (١): حدد موسى عليه السلام مطالبه في بداية الحوار، بينما لم نفهم ماذا يطلب فرعون من كلامه، ولم يزد على هدم ما قام به من عمل إنساني حيال موسى حين كان رضيعاً، ولعله بذلك قد فضح نفسه أمام قومه، إذ كيف يأمر بقتل الأطفال ويتبنى هو طفلاً؟! (١)

(١) راجع خطاب مبارك -الرئيس المصري المخلوع- أثناء الثورة تجد تشابهاً كبيراً بين موقفه وبين موقف فرعون، حيث لم يزد أي منهما على ذكر فضائله، غير أن الأول من على

في الفقرة (٢): دافع موسى ﷺ عن نفسه فيما نسب إليه من القتل، وجعل ذلك أولاً لينفي الصورة السيئة المطبوعة عنه في أذهان الناس، أما فرعون فقد بادر بالهجوم على معبود موسى مضمناً كلامه معنى التقليل من شأن هذا الإله !!!
في الفقرات (٣، ٤، ٥): نَوَّعَ موسى ﷺ في سوق الدلائل على قوة موقفه وأحقية الله ﷻ وحده بالعبادة. بينما في الفقرات نفسها برهن فرعون على ضعف موقفه وذلك أنه لم يقابل أدلة موسى ﷺ ولو بدليل واحد، كما أنه لم يدفع دليلاً واحداً مما استدل به موسى، ولم يزد على أن حاول تشويه صورة موسى ﷺ بالسخرية منه تارة وبسبه أخرى، وإذا به أخيراً يعلن لجوئه إلى استخدام سلطانه في مقابل هذه الحجج !!.

في الفقرة (٦): لجأ موسى ﷺ إلى الإقناع العقلي للتدليل على صدقه. وفرعون لا يزال مصراً على تكذيب موسى (إن كنت من الصادقين) !!
وفي الفقرة الأخيرة: يلقي موسى بكلمته الختامية في هذه الجولة، مما أبهر الناس، وأوشكوا أن يميلوا إلى جانبه. بينما لجأ فرعون إلى ختام حوار مع موسى بنفس الطريقة التي انتهجها وهي تشويه صورة موسى حتى لا يتبعه أحد !!.

حواره لعنه الله مع السحرة بعد إيمانهم:

في سورة الأعراف، وطه، والشعراء. قال ﷻ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْفَعُ مِثًّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَيْكَةَ قَالَ سَنُقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

موسى فقال ألم نريك فينا وليدا، أما الأخير فمن على شعبه بأنه خدمهم في السلم والحرب
!!!!

وقال ﷺ ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ النَّبِيِّاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

وقال ﷺ ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي مِنْكَ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾

وفرعون المستبد لا يريد أن يترك شيئاً يمر في أرضه دون علمه !! إنه يريد أن يحجر حتى على القلوب والأفكار !! (أمنتم.. قيل أن آذن لكم) ؟ "قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون وقد لمس الإيمان قلوبهم أن يدفعوه عنها، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء..... ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح: { فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل } .

ثم الاستعلاء بالقوة العاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: { ولتعلمن أيانا أشد عذاباً وأبقى } !

ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل. فإذا هي قوية قويمة. وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة.

وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة. وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة
وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل"^(١).

(١) في ظلال القرآن.

الخاتمة

وبعد فما زال للكلام بقية، ولا يزال المداد في الأقلام ينتظر من يسطر به مزيداً من كلمات البر والوفاء لهذا الدين ولهذا الوطن، ويكمل به رسم الصورة التي حاولت أن أوضحها لمصر من خلال حديث القرآن عنها.

ولا أدعي لنفسى الكمال، فكل بني آدم خطاء، والمعصوم من عصمه الله، وحسبي أنني حاولت أن أقرر مكانة مصر التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، لعلي بذلك أرد بعضاً من الجميل لوطني، وأشارك في تسطير أمجاد هذا البلد بقلمى كما سطرها غيري بدمائهم وأرواحهم.

وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

أولاً: الدين والوطن وجهان لعملة واحدة، فالوطنية ليست وثنية كما يدعي بعض الناس، ولا ينافي انتماؤك للوطن انتماءك للدين، فمن لا يحب وطنه لا يحب دينه. ثانياً: خص الله ﷻ مصر بمكانة كبيرة، إذ أقسم بها، وذكرها أكثر من غيرها، ووصفها بصفات الأمن والبركة والقداسة، وفصل في حياة أهلها... كل هذا وغيره يشير إلى الأهمية الإسلامية لمصر، ومن ثم ينبغي أن يعمل أبناؤها في كل زمان ومكان على أن يعيدوا لها مكانتها، وأن يعيدوا بها للإسلام مجده.

ثالثاً: ضرورة الإحسان إلى أهل مصر أياً كانت ديانتهم، فإن وصية رسول الله ص لأصحابه بأهل مصر كانت وصية للمسلمين (في شخص الصحابة) بالمصريين، ولم يكن الإسلام قد دخل مصر وقتها.

رابعاً: مصر كانت ولا زالت وستظل -بفضل الله- من أغنى دول العالم، إذ حباها الله ﷻ بكنوز، وخصها بخيرات وثروات طبيعية وبشرية، تجعلها قادرة على تجاوز أعتى الأزمات المالية، فقط إن أحسن أهلها إليها، فقد وصفها القرآن بأنها (الأرض) وما أشمله من وصف، فمن ملك مصر ملك العالم.

أسأل الله ﷻ أن يجعل هذا البحث في ميزان حسنات والديّ وأن يجعله نوراً لهما في قبرهما، وأن يتجاوز لي عما وقع فيه من خطأ أو نسيان. اللهم آمين. والحمد لله رب العالمين.

فهرست المراجع والمصادر مرتب ترتيباً هجائياً

- (١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩هـ) - حقه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط - ط: أولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٢) الأخبار الطوال - لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (المتوفى: ٢٨٢هـ) ت: عبد المنعم عامر. ط: أولى، ١٩٦٠م دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة
- (٣) الإصابة في تمييز الصحابة - لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)
- (٤) الإيمان والحياة للعلامة الدكتور يوسف القرضاوي.
- (٥) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز - لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) ت: محمد علي النجار ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة
- (٦) التسهيل لعلوم التنزيل - لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ) ت: الدكتور عبد الله الخالدي. ط: الأولى - ١٤١٦هـ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت
- (٧) تفسير البغوي - (معالم التنزيل في تفسير القرآن) لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ) ت: عبد الرزاق المهدي - ط: أولى، ١٤٢٠هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت
- (٨) تفسير الشعراوي. لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) ط: مطابع أخبار اليوم

- (٩) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) - ت: أحمد محمد شاكر - ط: أولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م مؤسسة الرسالة
- (١٠) تفسير القرآن العظيم - لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)
- (١١) جامع الأصول في أحاديث الرسول - لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) - ت: عبد القادر الأرناؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون - ط: أولى مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان
- (١٢) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم - محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي أبو عبد الله بن أبي نصر (المتوفى: ٤٨٨هـ) ت: د. علي حسين البواب - ط: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م - دار ابن حزم - لبنان/ بيروت.
- (١٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ت: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط: الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر
- (١٤) رسائل الإمام حسن البنا -
- (١٥) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك - لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري - ت: طه عبد الرؤوف سعد - ط: أولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة
- (١٦) شرح النووي على مسلم - (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) - ط: ثانية، ١٣٩٢ - دار إحياء التراث العربي - بيروت..
- (١٧) صحيح البخاري
- (١٨) صحيح مسلم
- (١٩) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للعلامة بدر الدين العيني

- (٢٠) فتح الباري - لابن حجر العسقلاني.
- (٢١) في ظلال القرآن - لسيد قطب (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ط: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ - دار الشروق - بيروت - القاهرة
- (٢٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - لعلاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ) ت: بكري حياني، صفوة السقا - ط: خامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م - مؤسسة الرسالة
- (٢٣) لسان العرب - لمحمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) ط: الثالثة - ١٤١٤ هـ - دار صادر - بيروت.
- (٢٤) مجلة البحوث الإسلامية -
- (٢٥) مسند أبي يعلى الموصلي - أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) ت: حسين سليم أسد - ط: أولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ - دار المأمون للتراث - دمشق
- (٢٦) المصطلحات الأربعة في القرآن - لأبي الأعلى بن أحمد حسن المودودي (المتوفى: ١٣٩٩هـ)
- (٢٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. للقاضي عياض.

فهرس الموضوعات

٦٧٦	منهج البحث
٦٧٦	خطة البحث
٦٧٧	المقدمة
٦٧٧	لماذا هذا الموضوع ؟
٦٧٨	حب الوطن فطرة في النفوس أقرها الإسلام
٦٨٠	اهتمام القرآن الكريم بمصر
٦٨٠	اهتمام النبي ﷺ بمصر وأهلها
٦٨٢	دور مصر على مدار التاريخ في حماية المقدسات والنود عن الإسلام
	الفصل الأول مصر في القرآن الكريم
٦٨٣	المبحث الأول من ذكرهم القرآن ممن نزلوا مصر أو كانوا من أهلها
٦٨٣	أولاً: من نزل مصر من النبيين
٦٨٩	ثانياً: من نزل مصر -من المؤمنين- غير النبيين
٦٩٣	ثالثاً: نساء دخلن مصر، أو أقمن بها، ذكرهن القرآن
٦٩٤	رابعاً: من ذكرهم القرآن من أهل مصر من غير المؤمنين
٦٩٦	المبحث الثاني الآيات التي ذكرت فيها مصر صراحة أو إشارة
٧٠١	المبحث الثالث الصفات التي أثبتتها القرآن لمصر
٧٠٣	المبحث الرابع: طبيعة الإنسان المصري كما قررها القرآن.
	الصفات المثبتة للمصريين من صفات المؤمنين.
	الصفات المثبتة للمصريين من صفات الكافرين.
٧١٣	الصفات المثبتة لهم من الصفات المشتركة بين الفريقين.
	الفصل الثاني: الحياة في مصر
٧١٨	المبحث الأول: الحياة الدينية
٧٢٠	أولاً: التفاؤل والتطير.
٧٢٢	ثانياً: اعتقادهم في الرؤى والأحلام
٧٢٥	ثالثاً: اعتقادهم في تأثير السحر
٧٢٩	رابعاً: تأليه الحاكم
٧٣٠	خامساً: لا توجد حرية دينية
٧٣٣	سادساً: الرجوع إلى الله، لكن في اللحظات الأخيرة
٧٣٤	سابعاً: تحريك العقيدة لهم

٧٣٦	وثامناً: كثرة الوعظ والنصح
	المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية
٧٣٨	وجود طبقات اجتماعية متفاوتة
٧٤١	عصبية كل فئة لأهلها
٧٤٢	وجود عيد اجتماعي..
٧٤٢	تقدير الحياة الأسرية.
٧٤٣	التسلية والترفيه
٧٤٤	شروع الأمن في المجتمع.
٧٤٤	دور المرأة وقيمتها في المجتمع المصري.
٧٤٧	المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية
٧٤٩	مصر والزراعة...
٧٥١	أشهر الزراعات في مصر القديمة
٧٥٣	تربية الحيوانات في مصر
٧٥٤	مصر والثروات الطبيعية.
٧٥٥	أغنى رجل عرفه العالم هو من أهل مصر!!!
٧٥٧	المبحث الرابع: الحياة السياسية
٧٥٧	الملك... والفرعون
٧٥٨	العزیز... وهامان
	ملحوظات عامة على حديث القرآن عن الحياة السياسية في مصر:
٧٥٩	أولاً: طول مدة الحكم.
٧٥٩	قوة شخصية الحاكم السياسية وسيطرته على شعبه.
٧٦٠	أهمية رأي الحاكم عند الشعب.
٧٦١	الحكم الفردي.
٧٦٢	الحكم العسكري
٧٦٩	الختام
٧٧٠	فهرست المراجع والمصادر
٧٧٣	فهرس الموضوعات